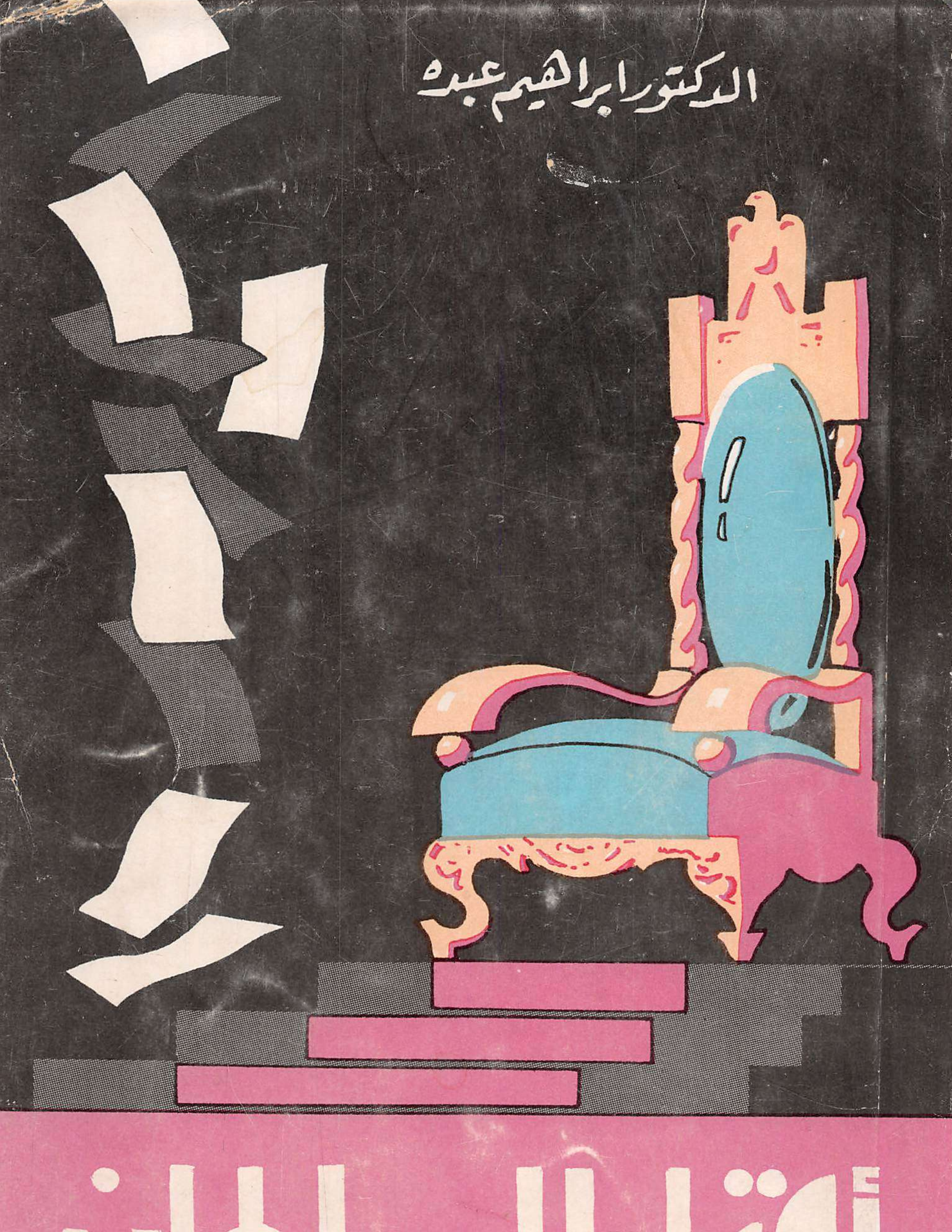
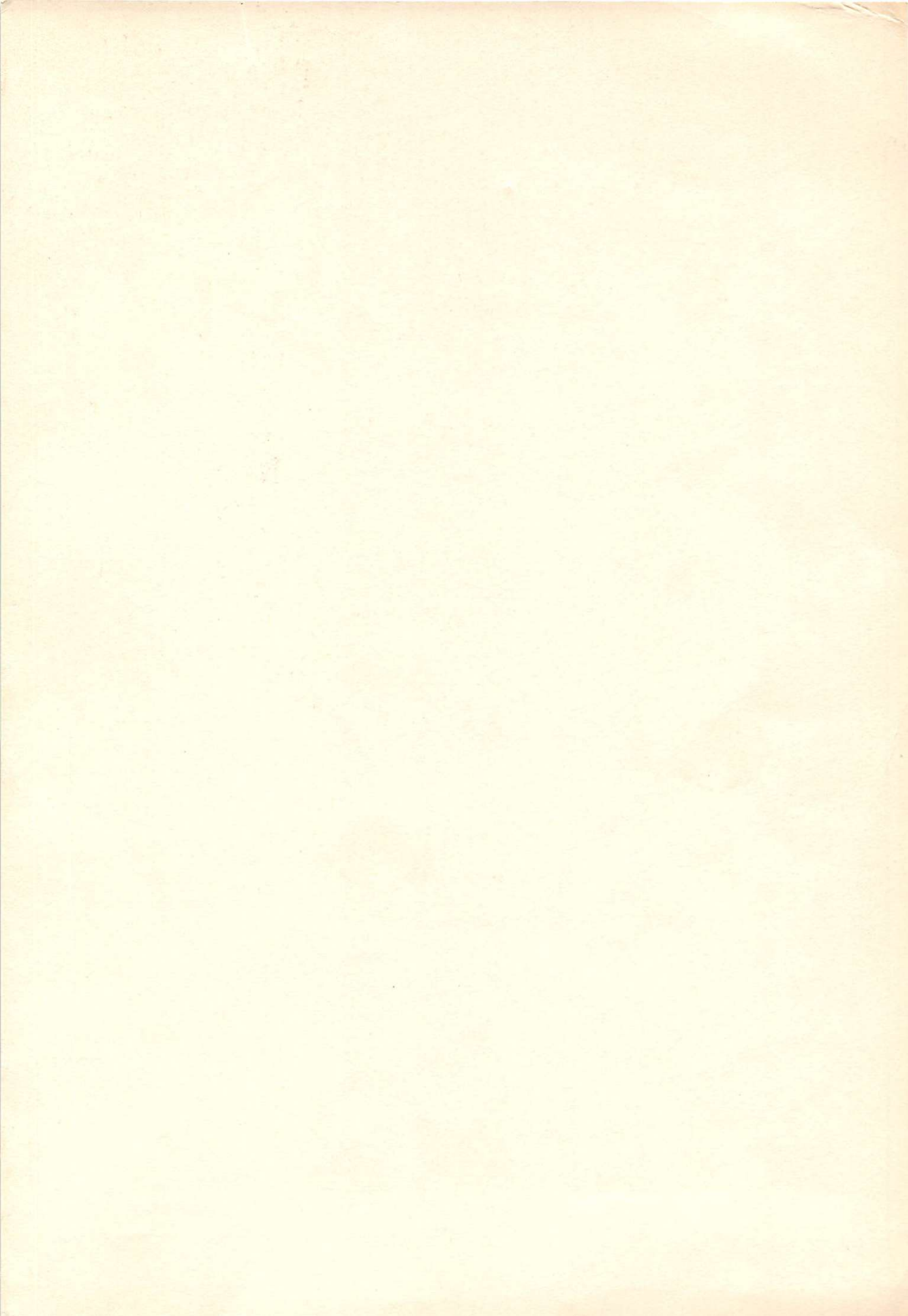
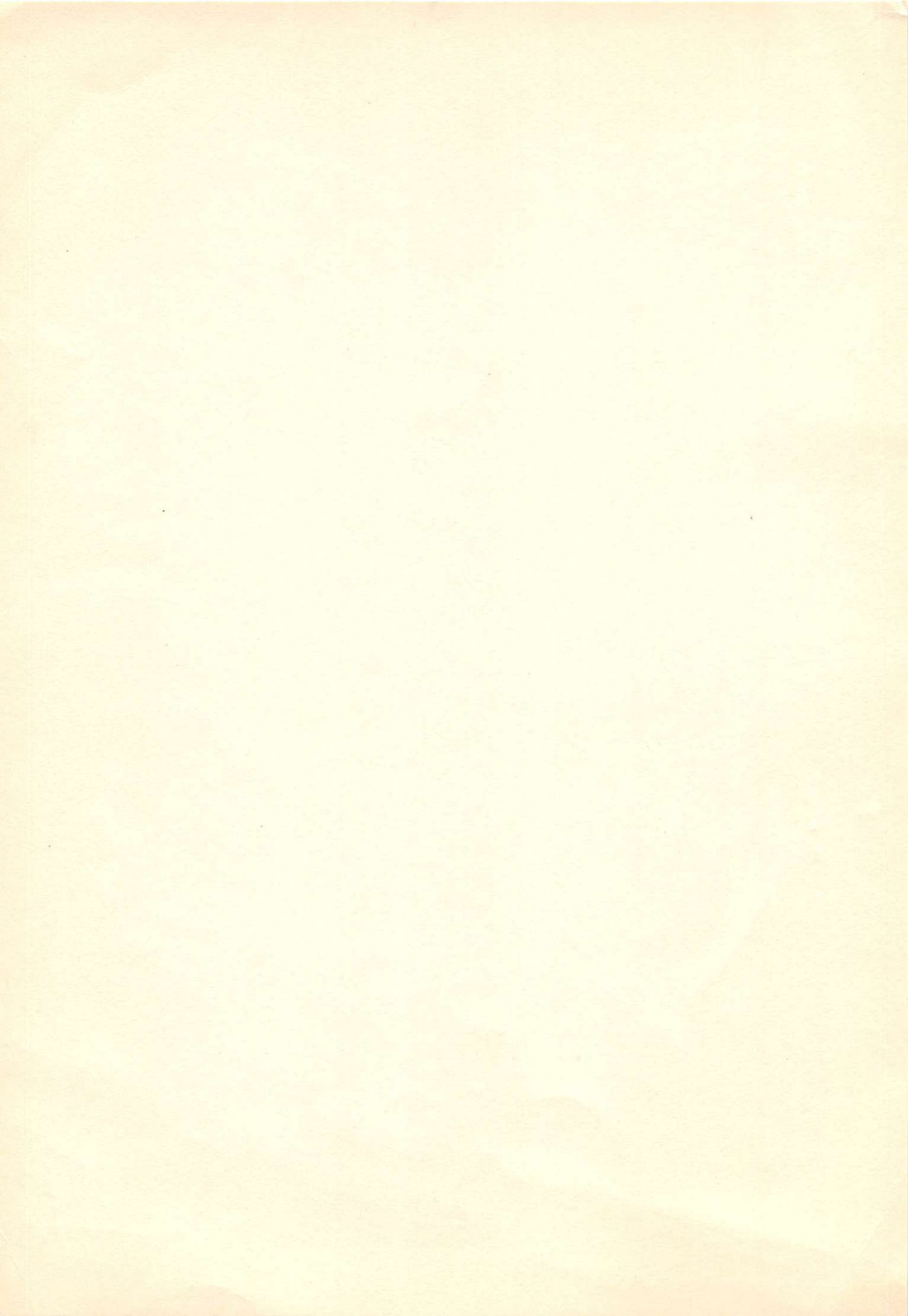
الدكتور ابراهيم عبده



أقول للسلطان

المكتب المصري الحديث





هـذا الكتـاب

.. دون عرض على الرقابة صـدرت الطبعة الأولى من هـذا الكتاب [أقول للسلطان] مستندا الى ما قاله السادات « أتعهـد بألا يقهر رأى أو يكبت فكر » ناقش فيه الكاتب رئيس الجمهورية بلا خـوف .. بلا تردد .. ناقشـه فى آرائه .. فى طريقة انتخـاب رئيس الجمهوريـة .. فى حرية اصـدار الصحف ... فى معاقبة مزورى التـاريخ .. فى الغاء وظيفة المدعى الاشـتراكى ... فى وفائه للصديق ... مطالبا فى نهاية كتابه تسريح نحو خمسين ألفا دربوا على الفتنة والتلصص ، وتشربوا سياسة اقتصادية لا تتفق أبدا مع سياسة الانفتاح . كان ومازال الكثير منهم على رأس العديد من المؤسسات والشركات .

وبعد صدور الكتاب ، وبعد أن استقبل السادات المؤلف ـ ألغيت الرقابة على الكتب ، والتى كانت تعد من بقايا عهود الكبت والوصاية التى فرضت على الشعب ... فكان هذا الكتاب فاصلا بين كتب صدرت بعد العرض على الرقيب ، وكتب ستصدر بمشيئة الله الى القراء مباشرة دون التعرض للحذف أو الاعتراض .

واننا اذ نقدم هذه الطبعة الجديدة الى القارىء ـ والكاتب هو فى ذات الوقت صاحب مؤسسة سجل العرب للنشر ـ فانما نهدف الى المشاركة فى الاحتفال بالغاء الرقابة .

الناشر

احمد يحيى

٥٠ قرشـا



أقول للسلطان

بقلم

الدكتور ابراهيم عبده

الطبعة الثانية

يناير ١٩٧٧

الناشر

المكتب المصري الحديث

للطباعة والنشر

تليفون ٢٦٦٠٢

اسكندرية

«أتعهد ألا يقهر رأي ولا يكبت فكر تحت أي ظرف وبأي سبب»

محمد أنور السادات

من خطابه بجامعة الأسكندرية

في ٢٦ يوليو ١٩٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نشرتُ هذا الكتاب وأنا على يقين بأنه سيثير كثيراً من التساؤلات كيف كتبته ؟ وكيف أجيز نشره على الملأ ؟ وكيف أذنوا بتوزيعه بين الناس ؟

إن فى بعض فصوله نقداً لأقوال أدلى بها الرئيس السادات ... وهذه خطوة ليست مأمونة العواقب ، ويخشى أن يكون لها أسوأ الخواتيم ، فما اعتاد الرؤساء أن يتكلموا فيعقب مواطن على كلامهم ، وإن كان للناس رأى فى كلامهم ، فلا ينبغى أن يقال إلا همساً أو يعبر عنه بالإشارات ! ...

هكذا عشنا جيلاً لا يخطىء فينا رئيس ، حتى بدا الرؤساء معصومين من الأخطاء ! ...

وحين جاء السادات ، لم يرحب الكثيرون بمقدمه ، بل ذعروا حين أكد أنه يلى السلطة على نفس الطريق ! ...

وقلت للمذعورين : لقد جاء عمر بن عبد العزيز من أرومة بنى أمية ، بيد أنه كان فى خلافته شيئاً بعيداً جداً عن هؤلاء

الخلفاء ، إذ رد المسلمين إلى عهد الراشدين ، وليس من الضرورى أن يكون الخلفاء على نهج واحد ، فقد يمضى بعضهم على نفس الطريق غير أنهم يختلفون فى الطريقة وأسلوب الأداء ...

ومرت الأيام ، وأصر السادات على أن يحكم شعباً من الأحرار فأغلق السجون وهدم المعتقلات ، وحرر أكثر من ستين ألف رجل وامرأة كانوا يرسخون فى السلاسل وتنوء أعناقهم بالأطواق ...

وأصر السادات على أن يأخذ الناس بالعدل ، فألغى القوانين الإستثنائية ، وأعاد للقضاء هيبته ومكانته ، وأبطل الحراسات ورد للناس ما سرق منهم بحجة التحول الاجتماعى وبغير ذلك من حجج لن يغفر الله لمبتدعيها ، وسوف يكتب لمن نسفها أكبر الثواب .

وأصر السادات على أن تكون الكلمة حرة ، فألغى الرقابة على الصحف ونحن فى حرب ، وكان غيره يثير الحروب لأتفه الأسباب ليعلن الحجر على الرأى والمال ، وليكون له حق العبث بمقدرات الناس ....

وأصر السادات على أن يحارب ويرد اعتبار العرب والمصريين ، وحقق نصراً فريداً بعد سلسلة من الهزائم كتبت الذلة علينا نحو خمس وعشرين من السنين ...

وليست الطبعة الثانية من هذا الكتاب قد نشرت لتسجل للناس

منجزات الرئيس السادات إنما هى صورة من الطبعة الأولى، وفيها مزيد من نقد حار وحريف وحراق !...

وإنما أشرت هنا إلى بعض من تاريخ الرجل الذى فتح صدره للنقد، ولنقد أقواله هو، حتى يفهم من قرأ الكتاب أننى لست فى نقدى لما قال خصماً يترصد الأخطاء والهفوات ...

لقد كُتب هذا الكتاب وصاحبه يسترخى على شاطئ البحر، وجُمعت حروفه وطُبعت ملازمه والطمأنينة تملأ قلبه ووجدانه، ثقة منه بأن السلطان القوى لا يخاف الكلمة القوية، وأنها حين تُنشر على الناس تكون شهادة لهذا السلطان الذى عرفناه ست سنوات فإذا هو الحر الذى أنجز وعده وبر بكل عهد قطعه على نفسه.

وبعد، فأختم هذه الفاتحة بكلمة لابد منها لمن أساء الظن بمقالى المنشور فى جريدة الأخبار فى ديسمبر الماضى وعنوانه (وأذن السلطان بلقائى) فاعتبر كلمات التأييد الموجهة إلى الرئيس السادات .. «قسم ولاء» ! ...

وأولئك لم يقرءوا هذا الكتاب، ولم يقرءوا الكتب الثلاثة التى سبقته فى نقد ما هو قائم ونقد ما فات، لأن كل عبارات التأييد والثناء المنشورة فى المقال، تكاد أن تكون هى عبارات التأييد والثناء التى توجد فى كتبى السياسية الأربعة، سجلتها قبل أن يلقانى وألقاه ..

أما بعد فإن هذا القلم لم يوظف قط ، ولن يوظف أبداً إلا لكلمة الحق يقولها من نور أو نار ، وإن صاحبه لا يعرف الولاء إلا لله سبحانه وللوطن علت راياته ، ولكن ذمته لا تحتمل أن ينكر على الرجل ما قدم لبلاده من خدمات كان آخرها ما صدر من قرارات استجاب فيها لكثير مما نقدته فى كتابى من إسراف ، فألغى سيارات الوزراء ، وحذف ثلث مخصصات القصر الجمهورى ، ثم أصغى بالمودة لأهم من ذلك كله ، أصغى إلى الرغبة العارمة من أصحاب الرأى فى قضية حرية الفكر ، فألغى الرقابة على الكتب .

وليس هذا بالشىء القليل .....

ديسمبر ١٩٧٦ دكتور إبراهيم عبده

مقدمة الطبعة الأولى

هذه خلجات نفس كتبت للسلطان ، فقد دعانا هذا السلطان إلى أن ندلى بالرأى فيما يعنى بلدنا ، ويهم أمرنا ، ويشغل بال مواطنينا ...

وحين يطلب السلطان من مواطنيه أن يبصّروا بالخطأ ، ويشيروا بالصواب ، فإنما هى دعوة من رجل صالح ينهج نهج الراشدين من الحكام والسلاطين ....

فإذا كانت الدعوة إلى النقد من أجل الصالح العام صادرة من ولى الأمر ، فان السكوت على مفسدة أو إغضاء الطرف عن سوأة يُعد جريمة فى حق الوطن ، واستهانة بمقام السلطان ، لأن الرجل يسّر لنا ما كان صعباً أو مستحيلا ، إذ عاشت مصر نحو عشرين عاماً لا يستطيع مواطن فيها أن ينطق بكلمة الحق ، لأن سلطان ذاك الزمان لم يكن يطيق أن يرى للحق راية ، ولا يسيغ أن يُتهم بهَنة ، هو أو أحد معاونيه الكبار ، أو أى ممن يجيدون لعق النعال من خدمه وحاشيته أو ممن فى مرتبتهم من السوقة وشواذ المجتمع .

لم يكن يطيق أن يسمع نقداً أو نصيحة ، لأن النقد أو النصيحة وثيقة على أن فى النظام خللاً ، أو أن الأمور لا تسير على هوى الناس ، والنظام حينذاك كان يعتقد أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ....

فإذا جاء سلطان اليوم وقال لنا بعد ست سنوات من حكمه ،

ها هى ذى صفحتى ، وطلب إلينا أن ننظر فيها ، ونقول الرأى فى سطورها ، ونكصنا نحن عن تلبية رغبته ، أصبح شعب مصر من الشياطين الخرس ! ...

وإذا كان عمر بن الخطاب قد طلب من المسلمين أن يقوّموا سياسته بحد السيف ، فما أظننا اليوم فى حاجة إلى سيف بقدر حاجتنا إلى قلم ، لأن القلم من روح الله ، أليس هو سبحانه الذى علم بالقلم؟

ولن ننسى أن سلطان الأمس قد طلب إلينا أن نرفع رؤوسنا وصدق السذج دعوته فرفعوا رؤوسهم ، ولا مجال فى هذه المقدمة لتفصيل ما جرى لتلك الرءوس التى لم يبق من أصحابها إلا الذيول !

لم يكن من طابع الأشياء أن يرفع المصريون رءوسهم وراية القانون منكسة ، أما اليوم فقد ثبت أن سيادة القانون حقيقة ، وأنها أصبحت واقعاً فى حياة الناس وأصلاً فى ضمير المجتمع ، والتزم بها السلطان حتى فى أعز الناس عليه ، وأخذت العدالة المسيئين من أقفيتهم حتى ولو كانوا رفاق السلطان فى السلاح والجهاد ، أو معاونى السلطان فى هذا الموقع أو ذاك .

بقيت عند الناس شبهة فيما دعا إليه السلطان من حق الناس فى حرية القول والتعبير ، ولا يزالون بالرغم من حرية القلم فى الصحف والمجلات ، يعتقدون أن هذه الحرية لا تزال فى رافد منها تخضع

للرقابة ، وأنه ما دام القلم فى جانب من رسالته يخضع للرقابة والرقيب ، فإن الحرية تحتاج إلى شواهد تؤكد للناس أنها هى الأخرى قد أصبحت واقعاً فى حياة الناس وأصلاً فى ضمير المجتمع .

وإذا كانت السنوات الست الأولى من حكم السادات قد حققت سيادة القانون ، فإننا ننتظر فى سنوات حكمه الست الجديدة التى بدأت منذ أسابيع أن تتحقق الحرية ... كل الحرية ...

لذلك كتبت خلجات نفسى هذه مطمئناً إلى الطريق ، مؤمناً بأنه خال من الحصى ، ممهداً لا وعثاء فيه .

وخلجات نفسى هنا ، نقد صادق وصريح وبناء ...

وحين تطبع هذه الخلجات ويقرؤها الناس ، فسوف تكون شاهداً عملاقاً على أن حرية التعبير حقيقة لا مراء فيها ، وأن السلطان قد صدق وعداً عندما تعهد بألا يقهر رأى ولا يكبت فكر تحت أى ظرف وبأى سبب .

نوفمبر ١٩٧٦ — ا . ع .

معك ولو اختلفنا

صدقنى يا سيدى الرئيس حين أزعم أننى أكتب لك من قلب مفتوح لم يعرف الحقد قط .

وآمل أن تثق بأننى متجاوب معك فى كثير جداً من خطاك ، وأننى أبارك هذه الخطى من قلب شفاف ليس فيه بقعة سوداء ، ولا يضطرب إلا بالحب ، ولا يستجيب إلا للخير ، ولا ينبض إلا بكل جميل وجليل .

وأنا حين أكتب لك هذا أرجو ألا تسلكنى فيمن اتهمتهم بالسعى وراء الشهرة ، فنحن أكبر من أن نلتمس الشهرة فى كتب السياسة وانما فى أسواق العلم مراجع عاشت جيلا وسوف تعلم على الزمن أجيالا أخرى ، ونحن حين نكتب نجد كل الجد ، فتلك سجيتنا وهى أيضاً طابع حياتنا منذ رأينا النور حتى كتابة هذه السطور .

وأنا حين أتجاوب مع خطاك ، وخاصة فى شئون الخارج ، لا أشذ عن سائر المصريين الذى وجدوا فيك الزعيم القادر على علاج الجراح التى خلفتها سياسة التهريج والشعارات ، والتى تركت فى كل مكان حقداً على مصر لم تعرف لضراوته نظيراً عبر تاريخها الطويل ، سواء اتصل ذلك بإخواننا العرب أو بدول الغرب

أو حتى بدول الشرق التى درنا ردحاً من الزمن فى فلكها المملق البغيض .

إنما أكتب لك هذه الخلجات ، وهى صدى لأحاسيس الملايين الذين تحبهم والذين يؤذيك أن يئن واحد منهم ، ومنهم من كاد أن يقضى من شدة الأنين ...

أرجو أن تصغى بمودة لما تنفضه لك نفسى ، فهو كشف حساب لا تعرفه ، فكشوف الحسابات التى تقدم لك لا تحمل الصدق كله ، ألم تقل لنا إن ست سنوات قضيتها فى قمة المسئولية ووزراؤك يخفون عنك حقيقة الوضع الاقتصادى المتردى حتى أسر إليك بذلك الوضع كبير وزرائك(١) وكان لك الصادق الأمين بين مئات الوزراء الذين تولوا شئون الحكم فى عهدك فساروا على درب من سبقهم ، يرونه غنيمة وليس مسئولية تنوء بها الجبال ؟ !

أرجو أن تفسح لى صدرك ، وتفتح لى قلبك ، لأقص عليك بعض ما أخفته الأجهزة عنك ، أو خشى من حولك أن يحكوه لك حتى لا يفسدوا عليك سعادتك . ألم تطلب منا فى أكثر من خطبة أن نكشف لك عن هؤلاء الذين يتاجرون فى قوت الشعب ويفسدون بذلك حياته ، ويقطعون بجرائمهم حبال المودة التى تربط بينك وبين الناس ؟ .

---

(١) جاء ذلك فى خطاب الرئيس فى ١٤ مارس ١٩٧٦ .

ألم تؤكد لنا هذا المعنى فى خطابك ليلة الاحتفال بالذكرى الرابعة والعشرين لثورة يوليو فطالبت « أن تكون الأضواء مضاءة والستائر مرفوعة والحديث عن جميع أنواع الانحرافات ونقدها مباح » ثم طلبت إلى جميع الأجهزة الرسمية والشعبية أن تتعقب « المنحرفين وغير المنتجين ونهازى الفرص » ؟ ...

أرجو ألا تغضب حين أختلف معك فى بعض جوانب السياسة الداخلية ، أو أعلق برأى لا يتفق مع رأيك .. ألم تطالب منا فى كل أحاديثك وخطبك ألا نخاف ؟ .

ألست القائل « لا شىء يشل إرادة الإنسان بل يحيله إلى جسد بلا روح مثل الخوف ، والخوف يولد العجز ، والحقد هو الثمرة الطبيعية للإحساس بالعجز »(١) .

فأنت إذن تريد منا كلمة الحق ...

وكلمة الحق هذه ، الصدق فيها نسبى ، وشرط براءتها أن يكون الدافع إليها سلامة النية وليس الحقد الذى يؤرق عليك وعلينا المضاجع ، وهى — أى كلمة الحق — احملها لك هنا ، وصدقنى للمرة الثانية ، أننى أكتبها من قلب مفتوح لم يعرف الحقد قط ...

---

(١) من خطاب الرئيس فى ذكرى الثورة . فى عامها الرابع والعشرين .

الثوب الناصع الأبيض

كانت خطبتك يا سيدى الرئيس فى ١٤ مارس ١٩٧٦ شيئاً فريداً بين خطبك وأحاديثك الكثار ، فقد اتسمت وحدها بشيء من العنف لم يؤثر عنك قط .

وفى تلك الخطبة قررت أن الحقد كان الدافع لنقدنظام عبد الناصر وشملنى قرارك كما شمل عشرات غيرى ، وجاء ذلك القرار وأنت تتحدث عن كتاب صدر يشكك فى ذمة عبد الناصر ، وصاحبه — كما تقول — صديق عزيز عليك عاش معك فى المعتقل وأنقذ رقبتك من المشنقة وكان مثالياً فى كل شيء ...

ونحن لا نعتذر عما سجلناه فى نظام عبد الناصر ، بل نفخر بأننا فجرنا الثورة على ما خفى من أمر هذا النظام ، وغامرنا فى كتابنا الأول بكشف كل ما نعرفه من عوراته ، وعقبنا بكتابين آخرين أكثر تفصيلاً وأوضح بياناً حتى لا ترى مصر نظاماً مثله مرة أخرى.

ونحن حين نقدنا نظام عبد الناصر لم نتعرض حتى الآن إلا للقليل من مآسى ذلك النظام الذى ينكشف كل يوم المزيد من الجرائم التى ارتكبت فى ظله ، وبعض هذه الجرائم محل تحقيق ومحاكمة ، وبعضها قال القضاء كلمته فيها ، وهى الكلمة التى قلناها فى كتبنا ومقالاتنا ، وسبقنا القضاء فى تسجيلها وكشفها .

وقد سمعنا فى تلك الخطبة تأكيداً للصداقة التى تربط بينك وبين عبد الناصر ، وهو أمر لا يزعجنا ، بل لعله يسعدنا أن نجد فى هذا الزمن واحداً يعتز بصديق وهو موضع النقد عند قطاع عريض من الرأى العام .

ومهما نختلف معك فى وزن الرئيس الراحل ومكانه فى التاريخ فإنه لا يضيرنا أن تراه رجلاً من رجالات مصر والأمة العربية .

ولكن الشيء الذى يزعجنا هو إصرارك على أن تحمل نفسك مسئولية الحكم فى عهده ، فلسنا سُذَّجاً أو بنا عَتَه أو أصابنا بالجنون حتى نصدق أن لك نصيباً فى التعذيب أو السرف أو الهزائم أو غير ذلك من سوءات العهد .

لقد أسرفت كأى شهم فى ذكر هذه المسئولية لتحمى صديقك من سياط النقد ، حتى طالب أستاذ جامعى بمحاكمتك ، وهو إنما يريد أن يؤكد بحكم قضائى أنك كنت بعيداً عن المسئولية الجنائية ، وبعيداً عن كل ما شاهدته البلاد من ظلم وطغيان .

يا سيدى إننا لم نتعرض لشخص صاحبك وإنما ناقشنا بعض تصرفاته ، ونقدنا نظام الحكم فى عهده ، وكشفنا المأساة التى عشناها فى ظله ...

نحن لم نسجل إلا ما قلته أنت يا سيدى الرئيس ...

حدثتنا عن التركة التى ورثتها عنه ، فقلت للمستمعين إلى خطابك : « تركت لى عبد الناصر كلكم تعلمون ما هى هذه التركة ؟ موقف خارجى ممزق مع جميع العالم ... ممزق مع الأمة العربية ، ممزق مع أمريكا ، ممزق مع غرب أوروبا ، ممزق مع دول كثيرة جداً فى هذا العالم ، ويكفى أمتنا العربية اللى هى عيلتنا ممزق ، آدى الموقف السياسى ... ترك لى موقف عسكرى ... إسرائيل على ضفة القناة .. ده الموقف السياسى اللى سابه لى مش بس كده .. هزيمة ... مرارة ... ألم ... إقتصادياً لم نصل فى حياتنا إلى موقف اقتصادى كما وصلنا إلى ما فيه نحن اليوم ، كل ده كان شىء ، وأمر واحد تركه لى هو اللى أنا تعبت وعانيت ولازلت أعانى منه هو الحقد ... الحقد اللى استشرى فى البلد ... بين الكل ... أنا عن نفسى ما أعرف أشتغل بالحقد » ...

إننا يا سيدى الرئيس لم تقل فى عهد عبد الناصر أكثر مما قلت :

إن كتبنا التى صدرت قبل خطبتك تلك بسنة أو سنتين عن عهد سلفك الراحل إنما كانت حيثيات لحكمك الصادر فى ١٤ مارس سنة ١٩٧٦ ...

الجديد ، أن الحيثيات سبقت الحكم ...

يقول حكمك الذى نقلنا بعض فقراته إن نظام عبد الناصر قام على الحقد « بين الكل » وإن هذا الحقد « استشرى فى البلد »

وإنك حياك الله وبيّاك ، لا تعمل فى ظل الحقد ، ولكن صديقك الذى « حفز فعلاً فى تاريخ هذا البلد وفى تاريخ أمته العربية صفحات رائعة » كما تقول سيادتكم قد قام نظامه على الحقد ، وأنه لم يستطع أن يحكم إلا فى أعطاف هذا الحقد !! ...

ويقول حكمك على عبد الناصر إنك ورثت عنه عداء العالم بمشرقه ومغربه ، وترك لك هزيمة منكرة وجيش إسرائيل على ضفة القناة ، ثم ترك لك وضعاً اقتصادياً منهاراً لم تعرفه مصر فى يوم من الأيام ...

وتقول كتبنا السياسية أو المذكرة التفسيرية لحكمكم على نظام عبد الناصر فى باب « الحقد » إنه شيء طبيعى لأنه حصيلة الظلم الذى وقع على عشرات الألوف من المواطنين المسالمين الذين سجنوا أو اعتقلوا أو شردوا أو عذبوا أو صودرت أموالهم بغير حق ، أو فصلوا من وظائفهم فتحولوا إلى متسولين أو منحرفين ، أو فسق فى بناتهم أو زوجاتهم أو أخواتهم ، أو تعرضوا هم أنفسهم للاعتداء على رجوليتهم (١) ثم أطلق النظام كلابه فى كل موقع من مواقع

---

(١) أقرب الأمثلة على ذلك ما حدث لأهل كمشيش من تعذيب على يد رجال المباحث الجنائية العسكرية إذ قال النائب العام فى قرار الاتهام « أجلسوهم القرفصاء وانهالوا عليهم ضرباً بالسياط وألبسوهم ثياب النساء وربطوا على أفواههم لجم الخيل وعرضوهم لصدمات كهربائية وهتكوا عرض بعض الرجال ... » وهناك حكايات أخرى سجلها النائب العام عفت الصحف عن نشرها لما فيها من جرائم خلقية نعف نحن أيضاً عن نشرها فى هذا الكتاب ! ...

الإعلام على نخبة من الأحرار المجاهدين فلصقت بهم الرذائل والقبائح وادعت عليهم كذباً وافتراء مسئولية مايقال عن فساد ما قبل الثورة :

كيف نصور مثل هذا المجتمع الذى عشناه قرابة عشرين عاماً ؟

لقد صورته لنا حين قلت « أنا بأومن بمبدأ أن المجتمع اللى تهدر فيه إنسانية أى فرد من ملايينه مجتمع ظالم غير جدير بالبقاء »(١) :

وما أظن كل هذا الذى ألمحنا إليه إلا صورة رائعة مروعة لمجتمع ظالم غير جدير بالبقاء !

فاعذر الناس يا سيدى حين يذكرون كل هذه المآسى واللعنة فى أفواههم ، واعذرهم حين يضنون بالترحم على من ظلمهم ، فقد قيل إن من يترحم على ظالم يرتكب معصية ...

أما عن العداء الذى ذكرت أن نظام عبد الناصر نشره فى أرجاء العالم ، فقدشمل أول ما شمل إخواننا العرب ، كل العرب ، إذ نالوا من النظام عداء بلا مبرر مفهوم ، واتخذ هذا العداء أسلوباً سوقياً تولته إذاعة صوت العرب أو إذاعة شتم العرب فتعرضت بقحة لملوكهم ورؤسائهم ، وحمل الأثير حصيلة ضخمة من الألفاظ النابية لا تتردد إلا فى « حوش بَرْدَق » وهو حى اشتهر منذ عهد المماليك بالبذاءة وطول اللسان ! ...

---

(١) راجع خطبة الرئيس فى مارس ١٩٧٦ ثم تكراره لهذه العبارة عشية ترشيحه لرئاسة الجمهورية فى مجلس الشعب فى ٢٥ أغسطس ١٩٧٦ .

ولأسباب تافهة ذخر باب العداء بخصومات مع أمريكا وهى سيدة الموقف فى قضية الاحتلال الإسرائيلى ، وبخصومات أخرى مع انجلترا وفرنسا وألمانيا الغربية ، وحتى روسيا التى استعبدت بلادنا بفضل ذلك النظام البغيض لم تنج من وقاحته .

وتحولت بذاءات اللسان أحياناً إلى تجريدات عسكرية ... تجريدة إلى الكونغو ، وأخرى إلى اليمن .. أو تجريدات سرية تهدف إلى انقلاب هنا أو انقلاب هناك ، فإن فشلت هذه التجريدات السرية فيما تهيأت له كانت لا تعود بخفى حنين ، فتترك بصماتها تدميراً لمنشأة أو نسفاً لمصنع أو اغتيالاً لإنسان ، تماماً كما يفعل تلميذه القذافى فى هذه الأيام ! ...

وهكذا يا سيدى الرئيس قام النظام كما تفضلت وصورته لنا فى خطابك ذاك ، قام على الحقد والعداء ، فى الداخل والخارج على السواء .

أما الوضع الاقتصادى المنهار الذى ورثته عن عبد الناصر ، فقد حدد أبعاد هذه الكارثة الاقتصادية وزير ماليتك فى بيانه فى مجلس الشعب وهو يقدم ميزانية سنة ١٩٧٦ أو موازنة ١٩٧٦ كما يسميها الشيوعيون ! فقد أعلن أننا خسرنا ١٦١٤١ مليون جنيه منذ هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ إلى نصرنا فى أكتوبر ١٩٧٣(١) .

---

(١) الأهرام فى ١٩٧٥/١٢/١٠ .

ويبدو أن وزير المالية كان رفيقاً بالناس ، فلم يرجع بهم إلى ما قبل سنة ١٩٦٧ ، فإن السنوات العشر التي سبقت الهزيمة لها هي أيضاً اقتصادها المنهار ، وهو اقتصاد لا يعرف تفاصيله أحد ، لأن ميزانيات الدولة والقطاع العام كانت سراً لا يباح ...

كانت أموال الشعب في السنوات العشر تلك تبذر في الحروب وبعثات التدمير هنا وهناك ، وإنشاء السجون والمعتقلات ، والتجسس على المواطنين في حياتهم الخاصة والعامة ، بالإضافة إلى ما تفضلت به وسجلته في خطابك حيث بينت أن نظام سلفك خلا من « الأمانة والشعور بالمسئولية » إذ أن أموال مصر بددتها « سياسة تجنيد العملاء والوكلاء وشراء الأقلام وإصدار الصحف المأجورة ، واستكتاب المرتزقة الذين يأكلون على جميع الموائد ويتنقلون من النقيض إلى النقيض » .

وأذكر إلى جانب هذا التبديد لأموال الشعب ، أن هناك جداول أخرى من التبذير عاونت على الوصول بمصر إلى هذا الوضع الاقتصادي المتردي ، وهي وإن بدت ضئيلة إلا أنك تراها حين تتجمع نهراً من السفه لا رافداً قصيراً من الإسراف .

لقد جاء في القضايا التي عرضت على القضاء ومن أقوال الشهود والمتهمين ، أنه عندما سقطت دولة الإنكشارية عقب كارثة ١٩٦٧

وجدوا فى قصر المشير عبد الحكيم عامر تلالاً من العملات الأجنبية وخمسة أكياس من الذهب ... !

ووجدوا فى خزائن شمس بدران تلالاً أخرى من جميع عملات العالم الصعبة التى تتحرق على جزء منها ميزانية الدولة ! ...

ووجدوا فى بيت المشير وحده ثمانين سيارة(١) لكل سيارة سائقان ، خصصت له ولأسرته وتصرف عليها الدولة كل شهر آلاف الجنيهات ، وكنا حين قامت الثورة نتهم الملك باستغلال أموال الشعب لأن الثوار وجدوا فى (جراج) الخاصة الملكية ستين سيارة ؟ ! ...

ومئات الألوف من العملات الصعبة ومن الذهب النضير التى ضبطت عند المشير وصبيه ألا تدعو لأن نتساءل كم بددا كل سنة من أموال الشعب منذ منحا ذلك السلطان قبل الهزيمة بنحو ثلاثة عشر عاما ؟ ! ...

وكم من الملايين خرجت من بين أنامل سامى شرف ومن فى مرتبته من الخدم والحاشية ولم تقيد فى دفتر أو يكون لها حساب ؟

وكم من الملايين كانت تصرف من خزائن شعراوى جمعه وزير الداخلية على التلصص والتجسس وشراء الذمم وإفساد الأخلاق

---

(١) من شهادة محمد طنطاوى أحد ضباط الجيش الموالين للمشير .
راجع كتاب (فى ساحة الطغيان)

وكيف نجمع الملايين التى بددت فى صورة هدايا أمر بها الراحل عبد الناصر لكل وفد زار مصر ، وكان عدد كل وفد لا يقل عن خمسين شخصاً ، وبلغ عدد الوفود فى عهده السعيد بضع مئات ؟ . وكيف نجمع الملايين التى بددت فى صورة هدايا وإكراميات حملها الرئيس الراحل فى زياراته العديدة لدول العالم ، أو حمّلها لمبعوثيه الذين كان يرسلهم لهذا البلد أو ذاك ؟ ...

وكم من مئات الألوف تكرم الرئيس الراحل فوهبها « نُقْطة » فى زواج أبناء أصدقائه أو أبناء خدمه وحاشيته أو أبناء بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة ؟! ...

وكم من الملايين تكرم بها أيضاً المشير عبد الحكيم عامر على من لاذ به من ضباط الجيش فى أفراحهم ، وفى أمراضهم التى عولجوا منها فى أوروبا وأمريكا وهى أمراض مستعصية على أطباء مصر كالزكام وما فى مرتبته من أمراض ؟! ...

وكم من الملايين بددت فى ليالى الحظ والجلسات الطرية ؟

وتزعم مجلة روز اليوسف فى عددها الصادر فى ٣ نوفمبر ١٩٧٥ فتذكر كيف كان المشير يجمع حوارييه من المدنيين والعسكريين فى ليال صاخبة تزخر بما يندى له الجبين ، ويبدو أن الجوكان « يُعبّق » بما يدير الرءوس فضلاً عما كانت تفعله فى النفوس الكؤوس ، حتى أن بعض الحواريين فقدوا أعصابهم فضربوا أحد الضيوف

حين ثان لمغازلة أحد الضباط لزوجته ، بيد أن المشير غفر الله له تكرم وتفضل وربت على كتف الزوج وقال له « إنت فى ديك النهار لما يغازلها ضابط » ؟

وكم من الملايين سرقت وهربت ؟.

وكم من الملايين أهدرها القطاع العام فى المظاهر والمباهج ؟

كم من المال صرف على رش مصعد وحجرة رئيس الجهاز المركزى الخرافية بالروائح الزكية فى الأعوام العشرة الأخيرة ؟

وكم من المال بدد على سيارات القطاع العام منذ إنشائه إلى أن أصبحت وكأنها سيارات خاصة إذ نشرت الأهرام فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٧٥ صورة لإحدى هذه السيارات وقد زينت بالصور العارية؟

لقد أسقطت يا سيدى الرئيس فى خطابك ذكر كل هذا ، ونسى وزير ماليتك أو تناسى أن يسجل كل هذا السفه والإسراف أو قل كل هذه الجرائم وهو يحكى عن الوضع الاقتصادى المتردى الذى ورثنا إياه عبد الناصر فيما ورثنا من كوارث ونكبات .

ليست هذه الصورة البغيضة هى صورة ثورتنا التى نؤمن بها والتى أقبلنا عليها فى حماس منقطع النظير ، دليله ما كتبناه فى شهر سبتمبر ١٩٥٢ تحية عاطرة لها وعتاباً مريراً لمن يشككون فى نواياها.

ومع هذا البلاء الذى ذكرته وذكرناه ، وفصلته وفصلناه، فإنك

عدت في خطبة مارس تعاتب فى عنف كل من كتب عن الجرائم التى ارتكبت فى عهد الرئيس الراحل فقلت « إن الذين يركزون كل الأضواء على السجن والتعذيب و المصادرة إنما يركزون على جزء ضئيل جداً من الصورة العامة للثورة ، يركزون على البقعة القاتمة على الثوب الناصع الأبيض وليس بهذا التشويش المقصود يكتب التاريخ » .

أما أنها بقعة قاتمة فقط فى الثوب الناصع الأبيض فذلك ما نختلف فيه معاك ...

إن الثوب الأبيض كاد أن يختفى بياضه من كثرة البقع القاتمة . ولسنا فى حاجة إلى دليل وعلى لسانك حياك الله عددت لنا الكوارث والمصائب ، وبينت لنا أن الأمر لم يكن سجناً وتعذيباً ومصادرة فقط ! ونكمل نحن فنقول ...

إذا كانت السجون والمعتقلات والمصادرة بقعة

فكذلك كانت مذبحة القضاء بقعة ...

وكذلك كان احتلال الروس لموانينا ومطاراتنا بقعة ...

وكذلك كانت هزيمة ١٩٥٦ بقعة ...

وكان فشلنا فى اليمن بقعة ...

وكان فشلنا فى الكونغو بقعة ...

وكان إغراق الإدارة بأهل الثقة بقعة ...

وكانت سرقات القصور والدور وما فيها من مال ومجوهرات بقعة ...

ثم جاءت أم البقع فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ففرطحت على الثوب الناصع الأبيض ...

ترى بالله أى ثوب فى الدنيا يمكن أن يبقى ناصع البياض وكل هذه البقع تملأ قلبه وجوانبه وتشغل وجهه وظهره ؟ ...

إننا فى الحق مبهورون بوفائك لصاحبك ، وقد بدا هذا الوفاء أقوى ما بدا فى القضية الخاصة بذمة عبد الناصر .

لا أذكر أنى تعرضت لذمة الرئيس الراحل أو ناقشتها فى واقعة من الوقائع لأن الوثائق ليست تحت يدى ، إلا أن كتاب صديقك الأستاذ جلال الحمامصى الذى أثار غضبك ، أرانى — حتى اليوم — مشغول الفكر بما جاء فيه ، لأنه اتهم الرئيس الراحل بحكاية الملايين الخمسة عشر ، ولم نجد رداً شافياً ينفى الاتهام النفى القاطع الصريح .

الحمامصى يتهم ، والأجهزة الرسمية ترد فى اليوم التالى بوثائق تحتاج إلى « صواميل » تربط بين المعانى ...

وسيادتكم تقولون فى تسفيه ما نشرته أخبار اليوم فى هذه القضية نقلاً عن كتاب الحمامصى « صحيح قد يكون هناك بعض الإجراءات التى لم تراع من قبل مسئولين فى طريقة التوريد » .

ثم يسبق ذلك قولكم لمجلس الشعب السابق « أنا بأضع لدى مكتب مجلسكم الموقر التحقيق الذى أجراه المدعى الاشتراكى »

والناس يتساءلون ...

ما هى الإجراءات التى لم تراع فى توريد المبلغ ؟

ثم يتساءلون ...

ماذا فعل مجلس الشعب السابق فى التحقيق الذى أودع مكتب المجلس الموقر ؟

إننا لم نقرأ شيئاً عن مصير هذا التحقيق الذى أجراه المدعى الاشتراكى ولم نسمع عضواً من الأعضاء المحترمين طالب بعرضه على مجلس الشعب حتى يتخذ المجلس قراراً فى هذا الشأن يأمر بنشره فى الصحف وبثه فى الإذاعة والتليفزيون...

ودعنا مما احتوى عليه كتاب الحمامصى من اتهامات أخرى لا تقل خطورة عن قصة الملايين إياها وسكتت الدولة عن الرد عليها فإن الناس يرون أن السكوت على سائر التهم إلى جانب الصمت الذى خيم على مجلس الشعب السابق فى قصة ملايين الدولارات تركت ذمة الرجل معلقة وموضع الشبهات ، وتركت الاتهام قائماً ، وسوف يبقى قائماً حتى يعرف هؤلاء الناس الإجراءات الباطلة فى

توريد المبالغ ، ووجه الحق فيما تضمنه تقرير المدعى الاشتراكى المحبوس فى أضابير « مكتب مجلس الشعب الموقر » يخيم عليه صمت مريب ! ...(١) .

(١) ذكر لى مصدر كبير أن ذمة عبد الناصر بريئة فى قضية الملايين المذكورة ، وأن ذلك سوف يتضح حين ينشر تقرير المدعى الاشتراكى ، ونحن فى انتظار هذا النشر حتى يتضح وجه الحق فى المسألة .

انتخاب الرئيس

وتحدثت سيدى فى خطبة مارس عن « منصب الرئيس » فرفضت دعوة الداعين إلى اختياره بالانتخاب ، وهى قضية أثرناها على صفحات « الأخبار » وأيدتنا فيها النخبة من أهل الرأى والفكر فى البلاد .

وفى نقدك الرقيق شعرت أناك تعلم أن الدعوة لانتخاب الرئيس دون الاستفتاء عليه ، دعوة صادرة من فكر يريد أن تبلغ الديمقراطية فى عهدك ذروتها ، وأن يكتب لك فى التاريخ شرف هذه الخطوة ، وأن يتميز نظامك بهذه النهاية السعيدة .

وما أظن مجىء رئيس الجمهورية إلى القيادة عن طريق الانتخاب سيحول بين الرئيس المنتخب وبين أداء واجباته فى العصر الحديث كما تقول « العصر الكثير التيارات السريع الحركة ، المحتاج إلى اليقظة وسرعة الفصل ورد الفعل أى سرعة اتخاذ القرار » .

ثم تفضلت فقلت « وما يصلح فى الولايات المتحدة وفى أى مكان آخر لا يصلح لنا هنا ... نحن نشأنا على احترام روابط الأسرة . ونشأنا على احترام كبير الأسرة . فإذا خرجنا عن هذا فإننا نخرج عن قيمنا وقد نصل فى النهاية إلى ما لا تحمد عقباه ... » .

ولست أدرى لم لا يصلح لنا ما يجرى فى الولايات المتحدة فى هذا الشأن ؟

إننا نأتم بكثير مما يجرى فى الولايات المتحدة وفى غيرها من البلاد الديمقراطية .

إن أعضاء مجلس الشعب عندنا يأتون إلى مواقعهم بالانتخاب ..

إن نقيب المحامين ونقيب المهندسين ونقيب الأطباء وغيرهم من نقباء المهن الحرة يأتون إلى مراكزهم بالانتخاب ...

وحتى النقابات الصغيرة والجمعيات الخاصة والعامة يأتى رؤساؤها عن طريق الانتخاب ...

إن العمال فى مصانعهم يأتون فى مجالس الإدارة بالانتخاب ...

إن اتحادات الطلبة فى الجامعات يأتى ممثلوها بالانتخاب ...

إن أمناء العمال والفلاحين يأتون بالانتخاب .

والأمثلة أكثر من أن تعد أو تحصى ...

فاذا اخترناك بالانتخاب أيضاً فلن يحول هذا الإجراء دون قيامك بمسئولياتك فى هذا « العصر كثير التيارات السريع الحركة المحتاج إلى اليقظة وسرعة الفصل أى سرعة اتخاذ القرار » ...

وكيف يكون انتخاب رئيس الجمهورية ضد روابط الأسرة وحاجباً لاحترام كبيرها ؟

إنك اليوم كبير الأسرة لأننا اخترناك بطريقة أو أخرى ، وما كان يمكن أن تكون كبير الأسرة إلا بهذا الاختيار ، ونحن حين دعونا إلى إنتخابك كنا نريد إبعاد أى شبهة أو شك فى أنك كبيرنا بمحض اختيارنا ، نؤثرك على غيرك لأنك عندنا تمثل معانى الحرية ونرى فيك صمام الأمان .

وأعتذر إليك يا سيدى الرئيس حين أخالفك فيما تعنيه بعبارة « كبير الأسرة » إنك عندى ، وعند ملايين الناخبين فى مصر أصلح رب أسرة شهدته البلاد منذ عهد بعيد ...

إنك رب أسرة مثالى على الصعيد الخاص كما تتحدث الأخبار ويقول الرواة ...

إنك لرب أسرة مثالى على مستوى الجمهورية كما أعرف وكما يعرف الناس . الأب الحانى على كل مظلوم أو مصدوم أو مكلوم .. الأب العادل الذى رد الحقوق لأصحابها ، وانتصف للضعفاء من الأقوياء ، وحطم القيود والسلاسل ... الأب النطاسى الذى آسى الجروح حتى خات من القيح ، وواسى القلوب حتى نفضت ما فيها من حسرة وحقد وكراهية ...

لذلك كانت دهشتى شديدة لتمسكك بطريقة الاستفتاء ، وهى وإن لم تثر إزعاجاً لنا لأنك كنت أنت المرشح للرئاسة إلا أنها تركت فى نفوسنا قلقاً على من سيفرض علينا بعدك من أرباب ! ...

من يدرى ؟ فقد يجىء رب أسرة مجنون أو معتوه أو مغرور أو ملتاث وأمامنا المثل قائم على قرب من الحدود ...

لقد كان هتلر رب أسرة فى ألمانيا ، فانتهت ألمانيا إلى التمزق والضياع ...

لقد كان موسولينى رب أسرة فى إيطاليا ، فانتهت إيطاليا إلى وضع لا تحسد عليه بحال ...

لقد مر بمصر رب أسرة وساس أمورها بأسوأ ما تساس به الأمور حتى بلغت روحها الحلقوم ! ...

إن رب الأسرة قد يكون كارثة على الأسرة ...

ربما يجىء من بعدك رب أسرة قاس لا يعرف الرحمة ، أو ظالم لا يعدل بين أبنائها ، أو طاغية يفسد على هذه الأسرة طعم الحياة .

إن الإجراء الدستورى فى اختيار رئيس الجمهورية عندنا فيه قهر وقسر ، لأن مجلس الشعب يختار واحداً فقط ويقول لنحو أربعين مليوناً هاكم رب جديد ، عليكم أن تقولوا الرأى فيه ولا محيص عن اختياره وأنتم صاغرون ! ...

تماماً كما يختار رئيس الجمهورية فى الكتلة الشرقية ، أو فى حكومة الجنرالات فى أمريكا اللاتينية ...

إن الاستفتاء نظام رجعي يمثل حكم الفرد ولا يتفق أبداً مع المتغيرات التي جاءت بها ثورة التصحيح .

إن الاستفتاء كان أمراً منطقياً مع الحكم السابق الذي كان حكماً دكتاتورياً لا رأى فيه لأحد إلا لرئيسه الذي حكم كأنه الواحد الأحد ! ...

ولست أرى رأيكم في تفسير معنى الديمقراطية حين تقولون عن اختيار رئيس الجمهورية عندنا « ليس في هذا أي تجاوز عن الديمقراطية ، ففي بلاد كثيرة يكتفى بانتخاب مجلس الشعب » لرئيس الجمهورية ...

وهذا القول على ظاهره صحيح ، بيد أن مجلس الشعب في الدول الديمقراطية التي ينص دستورها على أن مرجع اختيار رئيس الجمهورية إلى هذا المجلس ، يسمح دستورها بأن يتقدم إلى الترشيح لمنصب الرئيس أكثر من واحد . ويجرى الانتخاب داخل المجلس بين جميع المرشحين الذين تؤيدهم أحزاب مختلفة أو كتل برلمانية أشبه ما تكون بالأحزاب ، ولكن مجلس الشعب في مصر لا يجرى انتخابات ، وإن أجراها فهو إجراء يثير السخرية والتنكيت ، وإنما هو يعين واحداً يفرضه علينا فرضاً ، ولو كان لهذا المجلس حق في إجراء انتخاب جدى للرئيس من بين عدة مرشحين لكان في ذلك

خطوة ضخمة فى طريق الديمقراطية ولأصبح نقاشنا غير ذى موضوع ...

وفى ظنى أن العجلة فى ترشيح رئيس للبلاد ، سواء كان الأمر انتخاباً أو استفتاء ، فيها مجافاة لروح الدستور ، لأن البلاد كانت مقبلة على اختيار مجلس جديد فى ضوء نظام جديد . وكان يجب أن يكون للأعضاء الجدد الممثلين للشعب حق اختيار الرئيس ، لا أن يترك هذا الحدث الدستورى الكبير لمجلس أدار ظهره للدنيا ولم يعد يمثل الشعب على الوجه الصحيح ...

وفى معرض الخلاف بيننا على طريقة اختيار رئيس الجمهورية جئتم لنا بمثل من الهند ، وجعلتم من نهرو صورة مشرقة لرب أسرة جاء عن طريق الاستفتاء ... !

وعلى قدر علمى ، فإن رئيس الجمهورية فى الهند لايختار على طريقتنا ووضعه هنـــاك يختلف من الجذور مع وضع رئيس جمهوريتنا ...

إن رئيس الجمهورية فى الهند يرأس ولا يحكم ، إنه رمز لاأكثر ولا أقل ، و الهند فى ذلك متأثرة بنظام الحكم الإنجليزى حيث يملك الملك ولا يحكم .

ونهرو كبير الأسرة الهندية لم يأت بالاستفتاء بل جاء نتيجة

انتخابات حرة نال فيها حزبه أغلبية ساحقة ، وهو على أى حال كان رئيساً للوزراء ولم يكن قط رئيساً للجمهورية .

ثم ماذا ؟

تفضلت فأوحيت لنا بأن طريقة الاستفتاء تماشى « مع قيم مجتمعنا » وأنه لتحقيق هذا الغرض يجب أن نعود « لتقاليد القرية » وأنه بغير هذه التقاليد لن يستقيم لنا حال ، ولن يحسن لنا مآل ...

وكلنا يا سيدى الرئيس أو معظمنا نشأ فى القرية ونزح إلى المدينة ، ونقل معه كثيراً من أخلاق القرية وقيمها وتقاليدها ...

وليس معنى إعجابنا بالقرية أن المدينة كلها شر ، وإلا كان نصف مجتمعنا الذى تمثله القرية فاضلا والنصف الآخر الذى ينزل المدينة شريراً ؟

إن فى القرية كثيراً من أخلاق المدينة وفى المدينة كثير من تقاليد الريف وليست تقاليد القرية خيراً كلها ...

فى المدينة يقتلون ، وربما يكون القتل لأمر كبير أو دافع ثقيل ، وفى القرية أيضاً يقتلون ، وأحياناً من أجل « كوز » من الذرة ! ...

وفى القاهرة كبرى المدن المصرية ألف مئذنة لألف مسجد وجامع يضيق رحابها بملايين المؤمنين الذين يخشون الله ويعرفون عن

فهم ووعى تعاليم الإسلام ، ويعملون فى ضوء هذه التعاليم الرفيعة فلا يقتلون أو يسرقون أو يغتابون أو يرتكبون الآثام .

وفى القرية ، بالرغم من تدين أهلها ، لا نعدم مجرماً يحرق « الأجران » أو قاتلا يأخذ بالثأر ، أو فاجراً يعتدى على حرمة ...

من أين جاء « الخط » الذى عاث فى الأرض فساداً ؟

جاء من « القرية التى كانت تعمل الخبائث » .

أين تم تعذيب السيد المسيح ؟

تم فى القرية الظالمة ...

أين اضطهد محمد عليه الصلاة والسلام ؟

كان ذلك فى أم القرى ...

ليس كل ما فى القرية جميلا سواء كان فى مصر أو فى غير مصر من بلاد لها فى التاريخ تقاليد وعادات .

إنك يا سيدى الرئيس تحكم شعباً نصفه الواعى فى المدينة ، وهذا النصف ، بالرغم من الأمراض الحضارية التى دخلت مدنه يمثل القوة الأساسية فى مقدرات هذا الشعب ، ولن تكون القرية وحدها سند الحاكم أو الأسوة التى يتأثرها المحكومون .

لقد كنت أحلم بساعة أذهب خلالها إلى صندوق الانتخابات فأغض البصر عن أسماء جميع المرشحين للرياسة ، وأختار إسمك ،

وبذلك أحس أنني اخترتك بمحض إرادتي ، ولكني اليوم قد وافقت على تجديد رئاستك لا إيماناً بطريقة الاختيار وإنما ثقة في ذاتك .

ونأمل أن يُفطم الشعب في سنوات حكمك الجديدة ، فيكون له حق انتخاب رب الأسرة الذي يؤمن به ، ولا يلزم برب يستفتى عليه ! ...

الصحافة حرة

فى خطبة مارس ، وهى عصماء فى جانب منها وبتراء فى جانب آخر ، جاء فى حديثك عن الصحافة رفض شديد لفكرة تملك الأفراد للصحف ، وليس هذا من طبعك ، وهو اتجاه لا يستقيم مع حصيلة تاريخك ، بيد أنه للأسف الشديد جاء هذا الاتجاه الجديد نتيجة لتصرفات صدرت من أبناء غير شرعيين ادعوا الحق فى ميراث عبد الناصر ! ...

ومهما يكن رأينا فى الميراث وفى صاحبه ، فإن التفكير فى صحافة حرة أصبح ضحية لتصرفات هؤلاء الأبناء ، وهذه التصرفات خلقت حالة نفسية غيرت رأيك الحر المعروف ، وجعلت هناك تناقضاً بين أيك هذا وبين قراراتك التى وضعت موضع التنفيذ فى مجالات الحرية والديمقراطية الا شملت معظم جوانب الحياة ...

وإذا كان الأستاذ محمد حسنين هيكل يتجاوب معك فى « تسخين » الموقف قبيل حرب أكتوبر ، فقد كان الرجل متجاوبا مع نفسه ... نه فى عهد الرئيس عبد الناصر صور لنا النصر على إسرائيل حلم يعيش فيه المخدوعون ، وأن خط بارليف دونه العنقاء ، وأن نصف جيشنا المهاجم — ن ٭جن وهاجم — ستشويه النيران

فوق مياه القناة ، ونصفه الباقى سوف تحصده مدافع الإسرائيليين من خلف الخط الذى تداعى تحت وطأة النعال المصرية فى أصيل ٦ أكتوبر المشهود .

فإذا جئت وأعطيت « أمراً » للصحف بتسخين الموقف بنشر آيات الجهاد التى جاء بها القرآن الكريم ، فالرجل غير مؤمن أصلا بقدرتنا على الحرب ، وأنت تعلم أنه سجل على عبد الناصر أن القرآن الكريم بآياته جميعاً كان فى ضمير الرئيس الراحل وسدنة نظامه — وهو واحد منهم — بدعة وأفيوناً وهو لا يؤمن بالبدع ولا يتعاطى الأفيون ! ...

وأستغفر الله العظيم .

ومع أننى — مؤرخاً للصحافة المصرية — قد سجلت للرجل حقه فيما نشرت من كتب ومقالات ، وبينت دوره الكبير فى تطوير جريدة الأهرام والارتفاع بها إلى قمة الصحف المصرية من حيث الفن الصحفى والإدارة والتنظيم ، إلا أن التاريخ لن يغفل نصيبه أيضاً فيما أصاب البلاد من نكبات وأرزاء .

ألم يكن مستشار الرئيس السابق فى محن الداخل والخارج ؟

ألم يخصه وحده بالأخبار الكبيرة والقرارات الخطيرة دون سائر الصحف والصحفيين ؟

ألم يأذن له وحده بحصيلة الجريدة من العملات الصعبة يتصرف فيها على ما يهوى ويريد ؟

أما كان يختار للرئيس وزراءه وتشكل الوزارات فى مكتبه فى جريدة الأهرام ؟

ألم يقل مفاخراً بأن وزير الزراعة يشغل وظيفة (الخولى) عنده ويشرف على مزرعته التى حولها إلى قطعة من جنان ؟

ألم تكن كلمة منه تزلزل أى كبير ، وكلمة منه تدعم أى صغير ؟

خمسة عشر عاماً وهو فى هذا السلطان ، فكيف تريد منه أن يفيق فجأة ويرى أنه كسائر الصحفيين عليه أن يلتزم (ويسخن) لك الجو توطئة لليوم العظيم ؟

وإنك لا ترى مبرراً لصحافة يملكها الأفراد ما دمت قد سمحت بالحرية لها وللعاملين فيها ، ثم ذكرت فى معرض التبرير صحافة إنجلترا وقلت « أظن ما فيش أكبر من إنجلترا والسويد عراقة فى الديمقراطية وفى حرية الصحافة » .

وما أظن هناك أى وجه شبه بين صحافتنا وبين صحافة الإنجليز ! .

ليس فى إنجلترا اتحاد اشتراكى له نصف ملكية الصحف ، ولا تعرف إنجلترا الحزب الواحد الذى يملك الصحف وغيرها من أدوات الإعلام .

إن صحافة الإنجليز حرة سواء كانت ملكاً لفرد أو جماعة ،

ولا مراء فى أن معظمها فى صدر صحافة العالم التزاماً بالقيم الرفيعة ، وهى — جميعاً — حين يجد الجد تقف إلى جانب حكومتها مهما يكن بين بعضها وبين الحكومة من خلاف .

وقد عشنا الحرب العالمية الثانية ، فكانت صحافة إنجلترا بين صحافة المتحاربين جميعاً الوحيدة التى لا رقيب عليها ، وكانت تنشر أخبار الحرب فى صدق وأمانة دون أن تعمد إلى تثبيط الهمم على النحو الذى عانيناه من صحيفة الأهرام فى حربنا مع إسرائيل .

إن موقف الأهرام الانهزامى من « تسخين » البلد قبل حرب أكتوبر كان نتيجة طبيعية لتأميم الصحف التى استبعدت منها الشخصيات الحرة الملتزمة بالخط الوطنى وحده ، والمؤمنة بمصر لا بأصنام مصر ، وقد نصب على تحريرها بعض الصحفيين من البطانة وتجار الأقلام ، ولو كانت صحفاً حرة لما رأينا هذه الوجوه التى أفسدت مقدرات هذا البلد وساقته إلى هذا الدمار فى شئون الداخل والخارج على السواء !

ولم نذهب بعيداً ؟

لقد حاربنا إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ وكانت جميع الصحف ملكاً لأفراد ، وكانت على رأس البلاد حكومة أقلية لا تمثل الشعب ، بيد أن الحرب كانت حرب مصر والجيش جيش مصر ، وكانت أنباء الهزائم معروفة لدى جميع الصحف وعند كثير من النخبة

الواعية ، ومع ذلك فإن جريدة المصرى لسان الوفد أكبر الأحزاب والممثل الحقيقى لقوى الشعب العاملة لم تنشر إلا ما من شأنه أن يشجع المحاربين ويدعو إلى حفز الهمم وشد العزائم ، وإن كان لها بعد الهدنة حديث آخر زلزل النظام وأطاح بحكومة الملك الذى غامر بسمعة البلاد وزج بالجيش فى حرب بلا روية أو دراسة أو إعداد ...

إن الصحف فى ذلك الوقت — مع بعض المبالغة فى المقارنة — كانت كالصحف الإنجليزية فى قضايا الحرب والسلام ...

ويقولون إن الصحف ملك الشعب لأن الاتحاد الاشتراكى يملك أكثر من النصف فيها ، والاتحاد الاشتراكى هذا قد أمضى سنوات عمره وهو يجاهد عبثاً لتكون له بالشعب صلة ! ...

لذلك ، فإن الصحف حين تتبع الاتحاد الاشتراكى لا يمكن بحال أن تكون صحفاً حرة ، أو صحفاً قوية ، أو صحفاً مؤثرة .

إن الحرية التى نراها اليوم فى صحف مصر مرهونة بوجود الرئيس السادات .

هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان ...

ولعلى لا أتجاوز الواقع حين أزعم أن كل ما نستمتع به من حريات وسيادة للقانون ، وطمأنينة على العرض والمال ، مصدره وجود الرئيس السادات ...

بل لا أتجاوز الصدق حين أقرر أن النجاح الضئيل الذى حققناه فى قضية الانفتاح الاقتصادى مرجعه إلى اطمئنان المستثمرين ، سواء كانوا عرباً أو فرنجة ، إلى وجود السادات ...

إننا نريد أن نؤصل كل ما حصلنا عليه من خير فى عهدك يا سيدى ...

نريد أن نجعل من نظام الحكم نظاماً ثابتاً له أصوله وجذوره ، نظاماً قوياً قوة الرجل الذى يحكمنا حتى يطمئن كل الناس ، فى مصر وخارج مصر ، إلى أن وطننا مقبل على استقرار لا تؤثر فيه المؤامرات و المغامرات أو الهزائم ...

وفى صدر ما يجب أن تؤصله حرية الصحافة ، ولا حرية لصحافة يملكها السلطان وتأتمر بأمر السلطان ! .

لقد أنصتُّ إليك فى خطبة مارس وأنت تحدثنا عن الصحافة ، السلطة الرابعة كما سميتها وكما تسمى فى جميع البلاد الديمقراطية الحرة ، فصدمت حين استمعت إلى كلمة بالذات وأنت تكشف موقف هيكل من قضية حرب أكتوبر ، صدمت لأن الكلمة التى صدرت منك يا سيدى الرئيس لا تتفق وحرية الصحافة ، ولا تمضى مع رغبتك الحقيقية فى وجود صحافة حرة تنتقد وتوجه وتبصر ، وتسند الحكومة فى القضايا الوطنية الكبرى دون أن تنقاد للسلطان أياً كان قدر هذا السلطان ...

قلت « فأنا بقيت آجى فى كل مجموعة من دول وأسخن البلد ، وأدّى (أمر) للصحف تنزل حتت صغيرة .... كده آيات قرآنية » :

ثم قلت « لما اديت (أمر) للصحف .... » إلى آخر الكلام :

ثم قلت « فادّيت (أمر) للصحف طلعوا آيات القتال كلها اللى فى القرآن .... » إلى آخر الكلام .

إن الموقف فى تلك الأيام لم يكن فى حاجة إلى « أمر » بقدر حاجته إلى توجيه المسئولين فى الصحف بطريقة أو أخرى إلى أداء إلتزامهم نحو وطنهم ، وكان فى مقدور الحكومة وهى تمول الاتحاد الاشتراكى الذى يصرف على الصحف ، أن يشير بنشر كل ما أشرتم بنشره من آيات القرآن الكريم ولا بأس من التزيد بالأحاديث الشريفة وكل أقوال السلف الصالح فى الجهاد والشهادة فى سبيل الهدف العظيم .

كان يمكن تنفيذ كل ذلك دون .. أمر .

وإذا لم يكن بدٌّ من (الأمر) فقد كنت أفضل أن يكتم هذا الأمر فلا يسمع به الناس لأنكم أكدتم لهم أن صحفهم حرة ، فإذا علموا أن السلطان « يأمر » الصحف ، فهى إذن صحف السلطان وليست صحفاً حرة بحال ! ....

ثم تتفضل فى خطابك ذاك فتعدد الأسباب التى من أجلها ترفض تملك الأفراد للصحف ، فتقول إنك تخشى أن تخضع هذه الصحف

لتمويل أجنبي أو لسلطان الإعلان ، أو تصبح لفئة من فئات الشعب قادرة على تمويلها بالملايين وتعتبر ذلك « ضد كل فلسفتنا واتجاهاتنا ».

إن هذا الحذر ربما كانت له مبرراته ، ولكن له أيضاً علاجه الذى يطمئننا إلى حسن الخواتيم .

إنك تخشى مثلا أن يضعف صاحب جريدة أمام جاه أو مال فتشتريه دولة أجنبية كما هو الجارى فى لبنان ، فإن معظم صحفها تمول فعلاً من خارج لبنـــان ...

إن داراً ضخمة من سبعة طوابق فى بيروت كان لنا فضل إنشائها وازدهارها فى عهد الرئيس الراحل .

إن فى بيروت صحفاً تمولها العراق أو ليبيا أو روسيا أو غيرها من دول الشرق والغرب !

إن مصدر الحذر عندك أنك تخشى أن يحدث فى مصر ما حدث فى بيروت نتيجة هذه التجارة فى إصدار الصحف المأجورة التى تنشر البلبلة فى نفوس الناس .

وعلى قدر علمى بتاريخ الصحافة قديماً وحديثاً ، فإن لبنان فى العالم كله هو وحده الذى يصدر صحفاً لبنانية بالإسم ، أجنبية بالهدف والاتجاه ، وليس معنى هذا أن كل صحف القطر الشقيق على هذا الغرار ، فإن قليلا منها عرف قدر الصحافة كوظيفة اجتماعية ورسالة وطنية وإنسانية .

وفى وسع الدولة حين تبيح لنا حق إصدار الصحف الحرة أن تعالج أمر التمويل الأجنبى بالقوانين الرادعة التى تصل إلى حد إعدام صاحب الصحيفة إن ثبت أنه عميل تمده بالمال دولة عدوة أو صديقة.

وليس من بأس أن تسند حكومة مصر بالمال صحيفة ما ولو كانت معارضة ، على أن تتوافر فى ذلك أركان العلانية حتى لا نعود إلى المصاريف السرية وما تشيعه من فساد فى صفوف الصحافة والصحفيين .

وليس فى ذلك بدعة ، فإن حكومة فرنسا وهى ليبرالية الاتجاه أعانت بالمال وبسخاء الصحيفة الشيوعية الكبرى التى دأبت على مهاجمة الحكومة ونظام الحكم نفسه ، حين تعرضت هذه الصحيفة لأزمة مالية هددتها بالإغلاق ، ذلك أن الحكومة القوية لا تخشى معارضيها بل هى تحرص — وذلك قمة الديمقراطية — على أن تكون الألسنة المعارضة متاحة وقوية ...

وإن كنت تخشى يا سيدى الرئيس سطوة الإعلان على الصحف وترى أن فى مقدور هذا الإعلان أن يشترى ذمة الصحيفة وأصحابها فإنى زعيم لك بأن هذا غير مجد فى كثير من الأحيان .

إن المعلن العادى فى البلاد الرأسمالية لا ينشر إعلاناً إلا فى صحيفة رائجة واسعة الانتشار وإلا كان معتوهاً يبذر ماله ، والإعلانات الضخمة أو ما يسمونه بالحملة الإعلانية تكون عادة لشركات ضخمة

يعمل مديروها بحذر ودقة حين يختارون الصحف التي يعلنون عن منتجاتهم فيها :

ومع ذلك فإن الصحف المحترمة والتي تعرف قدرها لا يمكن أن يشتريها الإعلان .

إن مجلة لواء الإسلام أو مجلة الدعوة لا يمكن أن يغريهما مال قارون لتنشر إحداهما أو كلتاهما إعلاناً عن الخمر ... !

إن أحمد أبو الفتح رئيس تحرير صحيفة المصرى كان يدخل فى معارك طاحنة مع قسم الإعلان حين يشعر أنه إعلان لا يتفق ومثل الجريدة أو لا يوائم سياستها الوطنية أو عليه غبار ، وكان شقيقه الأكبر المغفور له محمود أبو الفتح وهو علم فى تاريخ الصحافة المصرية ينصت بالمودة إلى رئيس التحرير الشاب ويبارك خطاه وينزل عندما يراه ...

إن مجلة « بنت النيل » وهى مجلة نسائية أصدرتها درية شفيق زعيمة الحركة النسائية منذ ثلاثين سنة ، رفضت أن تنشر إعلاناً عن أحمر شفاه لايزول مهما تطل القبلة !!.

وأشهد — وكنت مشرفاً على تحرير المجلة إذ ذاك ، وكان يعاوننى فى تحريرها تلميذى وصديقى الأستاذ الدكتور خليل صابات الوكيل الحالى لكلية الإعلام — أشهد أن الإعلان كان لمدة ثلاث سنوات وحصيلته عدة آلاف من الجنيهات ، وكانت المجلة تمر فى أزمة

مالية ، ومع ذلك رفضنا أن ننشر إعلاناً فى الصحيفة النسائية الوحيدة التى كانت تدخل كل بيت ، وكنا فى ذلك صادقين مع أنفسنا ومع الناس ، لأن الصحافة فى عقيدتنا وظيفة اجتماعية وليست تجارة يعنيها الربح مهما تحاصر الصحيفة بالأزمات ! ...

وأذكر فى تاريخ (بنت النيل) أن مصادر إعلانها كانت تحتكرها شركة « متاتيا » وهى شركة كان يغلب عليها العنصر اليهودى فى الأربعينات.

وأذكر أننى قمت بحملة ضد إسرائيل على صفحاتها فى سنة ١٩٤٨ ، ولفت مدير الشركة — وهو يهودى — نظر صاحبة المجلة إلى ما أنشر من مقالات ، ومعنى لفت النظر هنا تهديد بقطع موارد الإعلان عنها ، ولكن زعيمة الحركة النسائية وهى صاحبة المجلة رفضت لفت النظر وأغلظت القول للرجل وردته فى عنف واستعلاء.

ومرة أخرى كنا صادقين مع أنفسنا ومع الناس ...!

هذه قصة الإعلان فى الدول الرأسمالية التى يملك الصحف فيها أفراد ...

أما نحن فبلد تسوده العدالة الاجتماعية وليس فيه تجارة لأصحاب ملايين إلا فى القطاع العام .

وتمثل إعلانات هذا القطاع الجزء الأكبر فى دخل الصحف ، ولم يتمكن سخاء هذا القطاع فى الإعلان من وقف الحملات الصحفية

على قصوره وفساده وسرقات المسئولين فيه ، وتعقب كبارهم وصغارهم على السواء ، حتى رأينا الحكومة تتدخل بين آن وآخر فتقصى عن بعض شركات هذا القطاع العاجزين أو المفسدين وهى تحاول فى استحياء تقويم المعوج على قدر المستطاع ! ...

يأتى هذا الإصلاح والصحف ملك للحكومة فكيف يكون الحال لو تحررت الصحف وبعدت عن السلطان ولم تجامل أو تداور أو يخشى محرروها الاضطهاد بالنقل والتشريد أو الوقف عن العمل مع صرف المرتبات !! وهى الإهانة الكبرى التى رضيها صحفيو مصر ثمانية عشر عاماً وباركها بعضهم نفاقاً « لولى النعم » أو حرصاً على رغيف أسود فى زمن أسود رأينا فيه بعض الأحرار يبيعون أقلامهم أو يرضون قصفها عن طيب خاطر ، ثم يزعمون لنا بعد ذلك أنهم أئمة الفكر وأعلام الحرية وأصحاب الريادة فى الشجاعة والإقدام !!

ثم ماذا ؟

إنك تخشى يا سيدى الرئيس أن تجتمع فئة من الناس وتصدر صحيفة وتعد ذلك كما جاء فى خطاباتك « ضد فلسفتنا واتجاهاتنا » .. !

ولا أرى مبرراً لهذه الخشية أو خطراً على حياتنا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية إذا أصدرت جماعة من المواطنين صحيفة أو أكثر ، بل إن اجتماع فئة لتحقيق هذا الغرض أفضل عند الناس وأجدى على الصحافة من أن تكون احتكاراً لفرد أو احتكاراً للسلطان،

ولا أدرى كيف يخالف ذلك « فلسفتنا واتجاهاتنا » على حد قولكم ، وفلسفتكم واتجاهاتكم واضحة وجلية ، فهى فلسفة حرية واتجاه ديمقراطى ورغبة أكيدة فى أن يتحرر القلم من الخوف وينأى عن النفاق والخداع ، « وألا يقهر رأى ولا يكبت فكر تحت أى ظرف وبأى سبب » .

هكذا قلت لنا ... لا فض فوك .

وقد تفضلت وذكرت أنه « حتى فى إنجلترا والسويد يفكرون الآن فى طريقة تعين بها الدولة الصحف مالياً دون أن تكون لها سيطرة عليها حتى لا يأكل السمك الكبير السمك الصغير ، أو تلجأ الصحف إلى مصادر تمويل خفية تنحرف بها عن الخدمة الوطنية المتوقعة منها ... » إلى آخر هذا الحديث الممتع عن ديمقراطية البلدين وحرية الصحافة فيهما ...

إنهم يفكرون فى البلدين تفكير فرنسا ، وقد ضربنا مثلاً فى إعانة الحكومة الفرنسية لكبرى الصحف الشيوعية التى تعارض هذه الحكومة كل يوم وفى عنف وشدة !

وحين يكون الشعب ناضجاً لا يمكن لصحيفة أن تلجأ « إلى مصادر تمويل خفية تنحرف بها عن الخدمة الوطنية المتوقعة منها » .

لقد كان فى وسع الصحيفة الشيوعية الفرنسية أن تلجأ إلى روسيا خفية دون أن تقبل يداً من حكومتها ، بيد أن الصحافة الأصيلة فى

الشعب الأصيل أكبر من أن تلجأ إلى هذا العار .

وهذا المثل الذى تفضلت وضربته عن إنجلترا والسويد هو إلى جانبنا وليس ضدنا ، فإن غاية ما نرجوه أن تكون فى مصر صحافة حرة كصحافة إنجلترا والسويد ، وأن تعينها حكومتنا عند الأزمات كما تعين حكومة فرنسا الصحف التى تعارضها ، وكما يفكر الإنجليز والسويديون نفس التفكير الذى وضعته فرنسا موضع التنفيذ ! .

لقد كانت هذه الفقرة من خطبتكم فقرة « عصماء » إن صح التعبير وهى فقرة من طبعك وصدى لما فى قلبك ...

يا سيدى

إن مصر ، منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهى حقل للتجارب السياسية ..... !

هيئة التحرير ...... ماتت وهى فى عمر الزهور ......

إتحاد قومى ...... نفق فى الطريق ......

إتحاد اشتراكى ......يبدو أنه يلفظ النفس الأخير ، وخاصة بعد أن سقط أمناؤه جميعاً فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة على صعيد مصر كلها من الأسكندرية إلى أسوان ...

فما ضرنا لو أضفنا إلى الحقل تجربة جديدة ؟

ماذا لو أنشئت صحف لأفراد أو شركات ؟

إنها تجربة تضاف إلى سائر التجارب ....

ومن يدرى ؟ فقد تكون أنجح التجارب ، وبذلك تزين عهدك بماسة تكسف وهج الشمس ...

إنها ليست تجربة فقط بل هى ضرورة للأحزاب الجديدة .. ولما سوف يستجد من أحزاب ، فكل حزب فى حاجة إلى صحيفة وإلا كانت أحزاباً بلا ألسنة ، وأنت يا سيدى الرئيس لا تريد أن تحكم شعباً من الصم البكم الذين لا يسمعون ولا يتكلمون ...

أجنحة الصنم

فى أكثر من حديث قلتم ، حفظكم الله ، إنكم لا تمانعون فى وجود الأحزاب إن رأى الشعب قيامها ، وسجل ذلك محرر الحوادث اللبنانية ونشرت هذا الكلام صحفنا المصرية .

ثم عدتم بعد أكثر من سنة فقلتم بأن « صيغة تحالف قوى الشعب الآن هى أنسب صيغة لنا تجنبنا الصراعات الحزبية التى تحدث اليوم فى البرتغال »(١) .

ثم انتهيتم فى أكثر من خطبة وحديث إلى أن المنابر خير معبر للديمقراطية وأنها إن كتب لها التوفيق فسوف تتطور إلى أحزاب(٢) ورأيتم أن هذه المنابر « نابعة عن إرادة شعبية أصيلة » لأنها جاءت بتوصية من « لجنة العمل السياسى » .

ومع أننى معروف بين خاصة الناس بكراهيتى للنظم الدكتاتورية

---

(١) الأخبار فى ٢٧/١٠/١٩٧٥ .

(٢) قرر الرئيس السادات فى افتتاح الدورة الأولى لمجلس الشعب فى نوفمبر الماضى تحويل المنابر الثلاثة إلى أحزاب ، وبصرف النظر عن دستورية هذا القرار ووقفه عند الأحزاب الثلاثة الحالية ، فإنه قرار حكيم وعلى طريق الديمقراطية التى لن يعوق طريقها عائق بعد أن نضج الشعب وعرف فى الانتخابات العامة الأخيرة كيف يميز ويختار .

وأظن أن كتبي السياسية شاهد على ذلك ، فإننى حزنت أشد الحزن لوفاة سان لازار دكتاتور البرتغال !

لقد جاءت وفاته نذيراً فى قضية الحزبية والأحزاب ! ...

لقد مات الرجل فانفجر حنين شعبه إلى الديمقراطية والحريات ، واختلط هذا الحنين بالدم والفوضى والحقد والكراهية ، وظهرت أحزاب وأحزاب ، وإذا دنيا البرتغال تتقطع فيها أواصر المحبة وتفتقد فيها إنسانية الإنسان ، ويختلط فيها الحابل بالنابل كأنهم فى يوم حشر لا يعرف فيه الأخ أخاه ...

عندئذ رأيت ببصيرتك النفاذة أن البعض عندنا أخذ يفكر تفكير أهل البرتغال ، فإذا لاحت فى الأفق عندنا فكرة الأحزاب أخرجت الأرض أثقالها بأكثر من عشرين حزباً أو عشرين منبراً وهو اللفظ الذى اصطلحنا عليه عند ذكر الأحزاب ...

لقد كان فى وفاة سان لازار وما ترتب عليها من مآس وكوارث ونكبات ، دخل فى تصرفات عقلنا الباطن ، فإذا الجلسات التى بدأت فى ظل « لجنة مستقبل العمل السياسى » تمت والمسئولون عنها لا يزايل خاطرهم هذا الطائف الوارد من البرتغال .

واجتمعت اللجنة مرات ومرات ، ونفّس أعضاؤها عما فى نفوسهم من أفكار وآراء ، ثم اتخذت قرارات تتماشى مع اتجاه الاتحاد الاشتراكى الذى يذكرنى دائماً بما كانت عليه فرنسا قبل

ثورتها فى القرن الثامن عشر حين عاشت حياتها السياسية إذ ذاك فى أعتى نظام للطبقات ... !

واتخذت اللجنة قراراً بإنشاء ثلاثة منابر ، وبارك مجلس الشعب ذلك القرار وأضفى عليه الصفة الشرعية حين تمت المباركة فى تشريع خاص ، وبذلك أصبحت المنابر « نابعة من إرادة شعبية أصيلة »(١) ، وحتى يخف إلحاح القطاع الذى يدعو إلى قيام الأحزاب ، وعدتم بأن وجود الأحزاب مرهون بنجاح المنابر ، ويبدو أنها قد نجحت قبل أن تمارس نشاطها ... !

لقد أفزعنا موت سان لازار ، إذ فجر موته بركاناً هناك خشينا أن يصيبنا من حممه شىء إن سرنا على درب البرتغاليين المشوقين إلى الحرية ، المحرومين منها أربعين سنة أو تزيد .

ولا أرى وجهاً للشبه بيننا وبين البرتغال .

نحن نستمتع بالحياة الدستورية وإن كنا لانزال فى أول الطريق ... ،

عندنا دستور قائم ونافذ ومصون الحرمات ...

وعندنا مجلس للشعب أثبت بعض الحيوية على مدى سنوات ... ،

وعندنا صحافة تستمتع بحرية لا بأس بها إن قيست بما كان قبل ثورة السادات ...

وعندنا أمن واستقرار ...

---

(١) من حديث الرئيس مع جريدة السياسة الكويتية فى ١٩٧٦/٨/١٤ .

ثم قل عندنا خير الضمانات .. الحاكم الواعى صاحب المنجزات ؛ فما لنا وما يجرى فى البرتغال من سوء النظام واضطراب الأحوال ؟

ولم يكون المثل عندنا كلما فكرنا فى صحافة حرة أو فى قيام الأحزاب لبنان والبرتغال ؟ .

ولم لا تكون الأسوة فى الفرنسيين أو الإنجليز أو الأمريكان ، وكلها شعوب تعيش حياة دستورية كما نعيش ، ولا ينقصنا من حياتها إلا قيام الأحزاب وإنشاء الصحف الحرة لتكون ألسنة لهذه الأحزاب أو ألسنة لغيرها من الأفكار والآراء ؟

أما الأحزاب فقد قامت ، وهو مبدأ لا يمكن أن يقف عند الأحزاب الحالية التى تدور فى فلك الاتحاد الاشتراكى ، ولابد من قيام أحزاب مستقلة عن الصنم لتمثل أكثر من نصف الناخبين . !

وإذا كان قد سمح للأحزاب الثلاثة بإنشاء صحف خاصة بها ، فلابد أن يكون للأفكار والآراء الأخرى صحف تعبر عنها حتى ستقيم عود الديمقراطية وتستقر أمور البلاد .

إن أحزاب الاتحاد الاشتراكى الثلاثة ، أو أجنحته التى سميناها أحزاباً ، لا تمثل فى الواقع أحزاباً ، وإنما هى محاولة لتمثيل الأيديوليجيات الثلاث ، اليمين ، والوسط ، واليسار .

واليمين كمفهومه فى الدنيا كلها ، يميل إلى التزمت ، وغالباً هو متمسك بكل قديم ، وحزبه سوف يمثل المحافظين ، وقد ينحرف منبر المحافظين فيجنح إلى المطالبة مثلا بعودة الملكية ! أو تكون له نظرة فى نظام الضرائب تختلف تماماً مع حزبى الوسط واليسار .

وقد عجبت أن يفخر قائد هذا الحزب بأن رئيس الجمهورية قد أصدر قراراً بتعيينه زعيماً للمعارضة المكونة من خمسة أعضاء ! ويحكى ذلك فى ندوة تليفزيونية يشاهدها الملايين فى أسى وكأنها دراما تستحق الزفرات والحسرات ...

فهل سمعتم فى دنيا الديمقراطيات أن خصم الحكومة تبوئه الحكومة مكانه ، وتجرى عليه الراتب والمخصصات ؟!...

والله ، إنها لمضحكات مبكيات ...

واليسار ، كمفهومه فى الدنيا كلها ، يميل إلى الثورة على كل ما يحيط به من أوضاع ، وهو يدعو إلى اشتراكية التجريد لا التمليك ويرى مذهبه صنما يعبد ، ومن لا يعبده خائن وإمبريالى وعميل !! ويرى الدين خرافة أو أفيوناً أو شيئاً لا يليق وحضارة القرن العشرين.

أما حزب الوسط ، فلا اعتراض عليه ، وهو يمثل كثيراً من أحلام الناس وأمانيهم إن صح ما جاء فى بياناته ومنشوراته ، ووضع وعوده موضع التنفيذ ، ولم يضحك علينا أو يسخر منا كما ضحك علينا وسخر منا الاتحاد الاشتراكى فيما أصدر من منشورات وبيانات !

ولا تمثل الأحزاب الثلاثة فى الواقع شيئاً من كل هذه الأيديولوجيات

لقد فرض عليها الإيمان بالصنم الأكبر وهو الاتحاد الاشتراكي، وقد ألزمت بفلكه تدور فيه مهما تصب بالدوار والغثيان، وفلكه يفرض عليها أصناماً صغيرة تتمثل في الالتزام بحتمية الحلول الاشتراكية ثم الالتزام بقضيتا الخمسين في المائة للعمال والفلاحين، سواء كان ذلك في تكوين الصنم الأكبر أو في مجلس الشعب أو في اللجنة المركزية أو في غير ذلك من جهات ...

فأين اليمين المحافظ الذى لا يمكن أن يكون يميناً وهو لا يملك رفض هذا الالتزام ؟

وأين يكون اليساز وهو لا يرى الحكم صالحاً إلا إذا سيطرت البروليتاريا أي ديكتاتورية العمال، التي تحيلهم إلى إماء وعبيد، يطحنهم العمل في المصانع وسائر المؤسسات، وليس لهم حق الشكوى إن أصابهم ظلم أو سوء، وليس لهم حق اختيار المهنة أو حق اختيار المكان، والمشانق معدة لمن يجرؤ على الاحتجاج أو يجأر بالأنين !

فالأحزاب إذن أجنحة خرجت من الصنم الأكبر وهو الحزب الوحيد في البلاد.

لقد أعلنت الأجنحة الثلاثة برامجها، فإذا كلها برامج واحدة يحتار في شأنها المواطن كيف يميز ويختار، وإن كانت برامج اليمين واليسار مهلهلة لأنها تريد شيئاً والواقع المفروض عليها شيء آخر، وهى تحاول أن تلائم بين أغراضها الحقيقية وبين مقتضيات الأحوال،

وليس هناك صادق مع نفسه إلا جناح الوسط ، وهو على أى حال صورة صادقة للاتحادالاشتراكى بما أذاع من بيانات ومنشورات.

ومع ذلك فإن قطاعاً كبيراً من الرأى العام ، لا يستقبل هذه الأحزاب جميعاً استقبال المؤمن بأنها غاية الديمقراطية ، أو أنها سوف تصل بمصر إلى الاستقرار المأمول ، وآية ذلك نجاح نحو خمسين مستقلاً فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة ، وذلك تمرد ملحوظ على الصنم الذى فرض علينا قرابة عشرين عاماً أو يزيد ...

ويتساءل هذا القطاع ، كيف تحرم الأغلبية الصامتة من حزب لها تكون له صحيفة ، بينما سمحت الدولة بحزب للشيوعيين وأكثر من صحيفة تبث أفكارهم ، وتحاول أن تمركس العمال والفلاحين ؟

إن الأحزاب الثلاثة خرجت من وعائها وهو الاتحاد الاشتراكى الذى يضم أربعة ملايين عضو فيما تقول البيانات الرسمية ، والذين لهم حق التصويت فى أى انتخاب قرابة عشرة ملايين فيما تقول البيانات الرسمية أيضاً ، فمن يمثل هذه الملايين الستة التى لا حزب لها ولا صحيفة ؟

إن أكثر من نصف الشعب غير ممثل فى مجلس الشعب !!!

ويتساءل هذا القطاع أيضاً ألم يعد فى السويداء رجال ؟

هكذا بعد خمسين عاماً مرت فيها مصر بتجارب سياسية ناجحة وفاشلة وبعد ربع قرن من قيام الثورة ، تمخضت مصر بملايينها

الأربعين فلم تلد إلا ثلاثة ضباط يتقاسمون الرئاسة للأحزاب الثلاثة التي سوف تحكم البلاد ؟

إن الناس لا يرون عيباً فى ذوات الرؤساء الثلاثة ، فهم جميعاً من أفاضل الناس ، بيد أنها مصادفة عجيبة جداً أن يكون فى مصر عشرات الألوف من أهل الرأى والفكر ، ثم ينضب معين كل هؤلاء ، فلا يصلح واحد منهم لرئاسة أى جناح ؟ ! .

وهكذا عدنا دون أن ندرى إلى قضية أهل الثقة وأهل الخبرة ، وبقينا حيث كنا من ربع قرن نؤثر أهل الثقة فى سياسة أمور هذا البلد ، ونؤكد ، ونحن نؤصل ديمقراطيتنا ، أن العسكريين وحدهم ولا أحد غيرهم جدير بشرف الخدمة العامة ، وهى هنا خدمة ذات طابع خاص ، الأصل فيها أن تكون للمدنيين ، وحين تكون للعسكريين فهى تجاوز واستثناء ! !

لقد ورطنا نظام الحكم السابق قبل ثورة التصحيح بمئات أو آلاف من الضباط وضعوا على رأس المصالح الحكومية أو على رأس مؤسسات وشركات القطاع العام ، ومن بين هؤلاء واحد يرأس أكبر هيئة علمية فى البلاد بينما يعتبر أقل أعضاء هذه الهيئة مؤهلاً أخبر منه بهذه الشئون .

وهناك واحد آخر ينتحل لنفسه الإمامة فيتولى الدعوة إلى الدين بلا عمامة ...

إن هؤلاء جميعاً قد اغتصبوا كل هذه الوظائف من أصحابها المؤهلين لها دون أن تكون لهم دراية أو خبرة فيما يتولوا من أعمال مما ترتب عليه فشل نجتر آثاره هذه الأيام .

والآن ، والثورة قد انتهت والشرعية الدستورية قد سادت . فكيف يكون على رأس جميع مواقع المسئولية الكبرى العسكريون فقط ؟؟ وفى مصر من المدنيين آلاف من الكفاءات ؟

إننا نريد أن ننأى بالجيش والشرطة عن السياسة ومشاكلها حتى يتفرغ كلاهما لحماية الوطن فى الخارج والداخل .

إن ما نشاهده اليوم فى محنة البرتغال ، وما نعرفه من عشرات السنين عن مشاكل أمريكا اللاتينية ، كل هذا كان نتيجة حتمية لتدخل الجيش فى أمور السياسة ، ونحن لا نريد أن نقيم عندنا ديمقراطية كما قامت عندهم فى كنف العسكريين ، لأن ذلك سوف يغرى فئات منهم بالتورط فى الأعمال السياسية ، وهو ما يجب أن ننبه إلى خطورته من بيده الأمر ، فإن فيه خطراً على الحريات والدستور واستقرار الأمن والنظام ..!

ثم ماذا ؟

إن هذه الأحزاب الثلاثة لن تستطيع أن تتحرك فى حرية والصنم الأكبر قائم نعبده ونقدس ما يدور فى فلكه من أصنام لا يجرؤ أحد على أن يمسك بيده معولاً ويقضى على هذا الإلحاد السياسى الذى عشناه عشرين عاما أو يزيد ... !

وبعد ... فإني واحد من المتفائلين بمستقبل وطننا العظيم ، لا تخميناً أو وهماً ولكن بالشواهد ، فقد كانت للسنوات الست الماضية منجزات ضخمة وقد عاد الرجل صاحب هذه المنجزات إلى موقعه لسنوات ست أخرى .

إنني أرجو أن يخيب الله ظن المتشائمين ، فلا تنتهي السنوات الست الجديدة إلا ومصر تتهيأ لاختيار رئيسها بالانتخاب ، وتقوم فيها أحزاب أخرى تتنافس على الخدمة العامة ، مبرأة من الهوى بعيدة عن كل ما يشين ، ولها صحافة حرة ملتزمة بواجباتها لا تخضع لرقيب ، ولا يشتريها مال ، ولا يغريها (إعلان) ولا تخاف السلطان وتبقى ساحة للحرية وميداناً للجهاد ، ولا تؤمن إلا بخدمة الوطن والمواطنين .

عندئذ يكون السادات قد أدى الرسالة ، وآن له أن يدخل التاريخ من أوسع الأبواب ...

بين عهدين

وفى خطبة مارس وما تلاها من خطب أيام الاحتفال بمرور أربع وعشرين سنة على قيام الثورة ، حملت سيادتكم على أولئك الذين ينقدون الثورة وكأنها خلت من كل فضل . ثم عددت لها الإيجابيات وذكرت المحاسن ، وهى حقائق لا يمكن أن ينكرها منصف ، وقلت إن الكتب التى صدرت وقد قرأتها كلها إنما تشيع بذلك البلبلة فى أذهان الشباب ، واتجهت إلى هذا الجيل مؤكداً أن ماسبق الثورة كان كله سلبيات وأثمته واستبعدت منه الفضائل والمنجزات .

معذرة إن خالفتك ، فأنت علامة على طريق الماضى قبل ثورة ٢٣ يوليو ، ومثل للمجاهدين فى هذا الماضى ، وغيرك كثيرون عانوا ما عانيت ، وجاهدوا ما جاهدت ، وتحدوا المظالم ، وحاربوا الفساد ، وتحملوا فى سبيل ذلك السجون والمعتقلات .

وبهذه الحقائق التى عشتها لم يخل الماضى من الشجاعة والشجعان .

ثم تقول يا سيدى إننا فيما نشرنا من كتب ومقالات نضلل أولادنا مستغلين « جو الحرية إللى ما حصلش من أربعين سنة » .

ولننس تهمة التضليل التى ألصقتها بنا ، ولنكن موضوعين .

ولا شك أن خطأ حدث فى الزمن الذى حددته بأربعين سنة ،

وأكبر ظنى أنكم تقصدون السنوات العشرين الماضية ، فهى بحق كانت سنوات عجافاً لم يشهد فيها المصريون أى لون من ألوان الحريات ! ...

أما قبل الثورة ، فقد كانت البلاد تستمتع بحريات فى كل مجال خلال حكم الأغلبية وفى مقدمة هذه الحريات حرية القلم ...

ولا أريد أن أعقد المقارنة بين موقف الصحف الحرة فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وما أثارته عن قضية الأسلحة الفاسدة(١) أو ما كتبته من حملات صحفية مروعة ضد الملك وحكومته و بطانته وحماته الإنجليز ، وبين صحف الاتحاد الاشتراكى وتخاذلها فى نقد كارثة ١٩٦٧ وهى الهزيمة التى اعتبرها هيكل نصراً لأن النظام باق والرئيس فى موقعه !

ولا أريد أن أعقد المقارنة بين الصحف التى حاربت الفساد والطغيان قبل الثورة ، فذلك تعرفونه فى صحف المصرى والاشتراكية وروز اليوسف وغيرها ، وقد ساهمتم أنفسكم بقلمكم على صفحات بعض تلك الصحف ، لا أريد أن أعقد المقارنة بين تلك الصحف وبين صحف الاتحاد الاشتراكى التى لم تجرؤ قبل ثورة التصحيح إلا أن تطبل للفساد وتصفق للطغيان ، وهو فساد وطغيان سجلتهما

(١) صدر حكم قضائى فى سنة ١٩٥٤ يؤكد أن الأسلحة الفا[سدة لم تدخل] مصر إلا بعد انتهاء حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ .

بالوثائق والأسانيد مئات المقالات فى الصحف وعشرات الكتب فضلاً عن أحكام القضاء ...

ثم صورتم الحياة النيابية قبل الثورة هزيلة لا ترقى إلى المستوى الذى عرفته مصر فى مجلس الشعب الأخير .

وإذا ذكرت بالحمد والثناء بعض المواقف المشرفة لمجلس الشعب فى عهدك ، فذلك حق ، بيد أن من العدل ألا نراه وحده جديراً بالحمد والثناء ، ففى الماضى أيضاً كانت هناك مجالس شعبية تستحق أن يسجل لها التاريخ أشرف الوقفات ...

لقد كان برلمان مصر فى كثير من الظروف قدوة ومثلاً منذ قيام الديمقراطية فى مصر ، إنه البرلمان الذى جعل التعليم إلزامياً ثم جعله مجانياً فى معظم مراحله ، وجعله حقاً لجميع المواطنين كحقهم فى الهواء والماء(١) ، وأنشأ الجامعات ، وحرر المرأة ، ووزع الأرض الزراعية التى تملكها الحكومة على الفلاحين بالمجان ، وأصدر من التشريعات العمالية ما يزال بعضها سارياً .

وفى البرلمان الذى رأسه سعد زغلول بالذات هوجم الملك فؤاد لسفهه وسرفه ، بالرغم من أنه كان طاغية يخشاه الجميع

---

(١) إننى بالرغم من تحيزى لهذا الرأى الذى يرى أن التعليم حق للمواطن كالهواء والماء ، فإننى أرى قصوراً شديداً فى تطبيق ذلك ، إذ انصرف التلاميذ والطلاب إلى الدراسات النظرية فأصبحوا عبئاً على المجتمع فى الوقت الذى يكاد هذا المجتمع أن يضطرب لنقص الأيدى العاملة الفنية فى جميع مجالات الحياة .

ولم يسلم أحد من شره وأذاه ، ووقف النائب أحمد عبد الغفار فى سنة ١٩٢٦ يندد بميزانية القصر الملكى ويتحدث عن نهم الملك الذى رصد للكنافة التى يأكلها عشرة آلاف جنيه !! ورصد آلافاً أخرى لكى ملابسه !

وحذف البرلمان من ميزانية الملك كل هذا التبذير ...

وأنت تعلم يا سيدى الرئيس أن الحياة الدستورية فى العهد الماضى لم تخل من إشراقات كان يطفىء نورها الملك والإنجليز ، وأن تطوراً كبيراً فى حياة البلد كان يتم كلما جرت انتخابات حرة وجاء الفلاحون والعمال وسائر فئات الشعب بحزب الأغلبية إلى الحكم .

وفى مجلس النواب الأخير الذى حاه الملك فى سنة ١٩٥٢ وقامت الثورة فى أعقاب حله ، أصدر أخطر القوانين فألغى المعاهدة الإنجليزية المصرية وقرر وحدة مصر والسودان ، ورفض القوانين الرجعية ، وهاجم السراى فى عنف ، وأيد الحكومة فى حرب العصابات التى شنتها على الاحتلال فى منطقة القناة وأصدر من التشريعات المفيدة الشيء الكثير .

إننا معك يا سيدى الرئيس فى أن الفساد الذى عرفناه فى سنوات ما قبل الثورة يجب أن يعرفه الجيل الصاعد ، كذلك يجب أن يعرف هذا الجيل الكسوف الذى طغى على شمس ثورتنا ، ولطخ بالقتامة

معظم صفحتها حتى تتسم أقوالنا بالدقة ، وحتى إذا وزعنا الخير والشر على العهدين لم يكن التوزيع قسمة ضيزى(١) .

أنت رجل عادل لا ترضى أن تبخس الناس حقوقهم ..

إن وقتك يا سيدى الرئيس لم يتسع لتقرأ كل كتبنا ، أو لتقرأ كل فصولها ، لذلك بدا أننا ضد الثورة ، وأننا نحجب حسناتها ونبلبل أفكار الجيل الصاعد عامدين حين نعدد الأخطاء والجرائم التى ارتكبت باسمها .

إننا معك بأنه لا يليق — كما تقول فى إحدى خطبك — أن يكتب التاريخ على هذا الغرار !

ونحن من جانبنا نستأذنك فى مناقشة أولئك الذين يصورون للجيل الصاعد أن كل ما سبق الثورة كان سوءاً ويأساً وخضوعاً وضعفاً ، فإنه لا يليق منهم هم أيضاً أن يتحدثوا عن التاريخ ويرووه على هذا الغرار !

لقد ضربت لنا الأمثلة على فساد الماضى الذى سبق الثورة ، ونحن لا نجادل فيما ضربت من أمثلة ، وإذا كنت تتحرج من ضرب الأمثلة عن الفساد الذى شوه وجه هذه الثورة ، فقد كنا نرجو ، وأنت الزعيم المخضرم الذى عاش العهدين ، أن تعرج على ما كان قبل الثورة من جوانب الخير ، لأن الدنيا لم تكن قطشراً كلها فى أى عهد مر بتاريخ مصر من آلاف السنين .

---

(١) قسمة غير عادلة .

وصديقك الحمامصى زميل المعتقل طبع كتاباً أسود فى عهد النحاس باشا زعيم مصر إذ ذاك ، وكان من أبرز ما فيه قصة تكليف الزعيم لسفير مصر فى لندن ليشترى (رونار) وهو قطعة من جلد الثعلب لتلتحف بها زوجة الرجل فى الشتاء ... واشترى السفير (الرونار) وسدد الزعيم ثمنه من حر ماله .. !

كان هذا فساداً يستحق كتاباً أسود ... ! !

فما رأيكم أكرمكم الله فيما اشتراه سامى شرف من بيروت بمئات الألوف من الليرات اللبنانية وآلاف الجنيهات الإسترلينية لاستعماله الشخصى أو لاستعمال رب نعمته ، وخرجت كل هذه الأموال من خزانة الدولة التى تظل عشرات الملايين من العرايا الجائعين ؟ !

وما رأيكم فى جهاز العرائس من بنات صاحب السيادة أو بعض أصحاب السيادة من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى اشترى من باريس ولندن وروما وغيرها من البلاد ، وهم الفقراء المعوزون الذين كانوا عند قيام الثورة يذكر فقرهم يتباهون ويتحدثون ؟! ..

وما رأيكم فى ليلة القدر التى آثرت بخيرها بعض ضباط الصف الثانى الذين قاموا بحصر تحف ومجوهرات القصور الملكية ، فإذا هم وحدهم بين ضباط الجيش يبنون الفيلات الفخمة فى مدينة المهندسين ويؤثثونها بفاخر الرياش ، ثم تضطرهم الحاجة يا ولداه فيبيعونها بمائة ألف من الجنيهات ليسدوا الرمق ويواجهوا ذل الحياة ؟! ...

وهذا الضابط الذى آثرته ليلة القدر بالخير والبركات ، هل

سالتموه — من باب العلم بالشيء — كيف تفتح طاقات السماء لتنهمر منها آلاف الجنيهات ؟

سلوه عن طاقات السماء ، ولا تسألوه من أين لك هذا الثراء ، ودعوا لغيره هذا السؤال فهو قد قنن وشرع للمملقين الفقراء ؟ ...

كل ما نرجوه ، إجابة على سؤال ... هل حاسبته الضرائب على الربح الحلال الناتج من مال حلال ؟! ...

وقبل الثورة قالوا إن الملك كان يسرق ليلعب القمار وكانت بطانته تستغل مواقعها فتتاجر فى قوت الشعب وتعتصر دم العامل والفلاح ، فهل خلت البلاد بعد قيام الثورة من البطانة المستغلة التى تلعب القمار ومن الذين يتاجرون فى قوت الشعب .. ويستنزفون دم العمال والفلاحين ؟

فما رأيكم ، أعز بكم كلمة الحق ، فيما نشرته روز اليوسف عن التاريخ السرى لحكم عبد الناصر ، فحدثتنا عن ذلك الملحق العسكرى الأثير لدى قلب الرئيس ومشيره عبد الحكيم عامر ، والذى كان يقامر ويخسر فى كل شهر خمسة آلاف جنيه ، فيسددها عنه المشير بكرمه بعد أن يؤنبه ، وكان المشير غفر الله له يؤنب ذلك الملحق فى كل سنة ثنتى عشرة مرة !! فكم من السنين يا ترى لعب الملحق العسكرى القمار ، وكم من الآلاف سحبت من خزانة الدولة ليسددها عنه المشير الجبار(١) ؟

(١) روز اليوسف فى ١٧ مايو ١٩٧٦.

وتزيدنا روز اليوسف تفصيلاً عن الفساد فى عهد الرئيس الراحل فتذكر أن (بونات) سيارات نصر التى كانت صفوف النخبة من أهل العلم والفكر تقف شهوراً وسنوات فى انتظار دورها لاستلام سياراتها ، كانت (بونات) هذه السيارات فى حقيبة فنانة توزعها على حلاقها وحائكها وعلى من تحب من الأهل والأقارب ، وأصدقاء الليالى الملاح الذين يشاركونها الأنس والبهجة منذ تغيب الشمس حتى يلوح الصباح ؟! ...

ويحكى لنا منير حافظ صاحب التاريخ السرى لحكم عبد الناصر فيذكر كيف استغل مكتب المشير سلطاته فعقد صفقات مع تاجر أثاث ، يورد له أوراق الذهب وهى الأوراق التى تستعمل فى تذهيب فاخر الأثاث ، وكانت هذه الأوراق الذهبية تدخل بكميات ضخمة بلا جمارك وتباع فى مصر بعشرين ضعف ثمنها ، وكان للمكتب نصيب الأسد فى الأرباح(١) !

وقبل الثورة فصل محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء وزير الزراعة وهو ابن شقيقته ، لأن الألسنة أسرت للآذان بإشاعة كاذبة تقول إن هناك علاقة الوزير بتاجر فاكهة ، وقال الرئيس للصحف إنه يقيل ابن شقيقته وليس فى يمينه دليل على الاتهام ، ولكنه لا يريد أن يحكم بوزراء تحوم حولهم الشبهات ...

---

(١) روز اليوسف فى ١٧ مايو ١٩٧٦ .

وبعد الثورة لم تكن ذمة بعض الوزراء خالية من الشائبات ، وفى هذا تحدثت الصحف والمحاكمات ، ومع ذلك كان عقاب الوزير غالباً ترقيته فى أول تعديل وزارى إلى منصب نائب لرئيس الوزراء أو تعيينه رئيساً لمؤسسة فى القطاع العام يسومها كأنها إرث عن الآباء والأجداد ؟! ...

وقبل الثورة هاجت المعارضة وحملت على أصهار رئيس مجلس الوزراء واتهمتهم باستغلال النفوذ لأن بعضهم استطاع أن يسترد أطيانه وكانت مرهونة لسنوات ، وكان مثل هذا الاتهام الذى لا يقوم عليه دليل يتخذ تعلة لإقالة الوزارة فى بعض الأحيان ! ..

وبعد الثورة شيدت كريمتا الرئيس الراحل فيللتين ، ونافسهما فى فخامة البناء كثيرون من الوزراء وغير الوزراء ، ولم يسأل أى منهم من أين له المال الذى بنى به قصره فى هذا الشارع الخالد الذى سماه العامة ساخرين شارع البرنسات؟ ! ...

وجاء فى جريدة الأخبار بقلم الحمامصى فى أغسطس الماضى تساؤل صريح من الكاتب عن مصدر الثروة التى مكنت السيد أشرف مروان من شراء عزبة لقرينته كريمة الرئيس جمال عبد الناصر بعشرات الألوف من الجنيهات ، من أين له كل هذا الثراء ؟

ولم يجب أحد على التساؤل ، وغفا قانون من أين لك هذا ، وغفت عنه أو غفلت عنه مصلحة الضرائب التى تطارد سائر المواطنين بالعصا والكرباج ! ... » .

وفى هذا الباب تروى عن هذا الشاب القصص والحكايات ، وبعضها نشرته الصحف ، وبعضها سجلته الكتب ، وكثير منها يحكيه العامة والخاصة على المقاهى وفى البيوت والمنتديات عن أحداث جرت له فى لندن وباريس وجنيف وغيرها من العواصم المبهجات ....

ولهذه القصص والحكايات ، أو لغيرها من أسباب نحى فجأة عن منصبه القريب من السلطان .

ومعذرة سيدى الرئيس إن ذكرت لكم دهشة الناس لطقوس العزل ومراسم التنحية :

فلأول مرة فى التاريخ يعزل موظف ويعلق رئيس الدولة على صدره نيشاناً من أرفع النياشين ....

ولأول مرة فى التاريخ ينحى مواطن عن منصبه ويودعه رئيس الدولة بخطبة يصوره فيها أفضل من أنجبت مصر من شباب المواطنين !

وذهل الناس للوظيفة الجديدة التى عين فيها الشاب المرموق ، وفيها مجال فسيح يدعو طوال اللسان إلى كثير من الكلام ، ويملأ العقلاء بالضيق والقلق من ولاية حدث لمنصب يرأس فيه الأفرقة واللواءات ....

أنا لا أحب أن آخذ الناس بالشبهات ، فقد يكون للحسد نصيب فى الحملة على هذا الشاب ، وقد لقينا مثله فى شبابنا ألواناً من العذاب من غيرة الحساد ، ولم ننج من الألسنة السليطة التى كانت تشتد حدتها كلما أصبنا نجاحاً هنا أو هناك .

والفرق بين شبابنا وشبابه أن جيلنا لم يمر به واحد بمثل هذا النبوغ الذى أصبح مضرب الأمثال(١).

إننى لا أريد أن أتعقب فى هذا الفصل كل ما أعرف من سرقات وتسيب وإهمال ، فذلك أمر يطول شرحه ، وهو واجب الأجهزة الرسمية قبل أن يكون واجب الكتاب الذين يناقشون مايسمونه سلبيات الثورة ، وهو تعبير يدللون به الجريمة أو يخففون به وقع الحقيقة على الأسماع ...

ليس معنى هذا الذى نحكيه هنا أن الثورة هى المسئولة عن كل هذا الفساد.

الثورة كانت حلماً حققناه ، وإن لها فى ضمير شعبنا مكاناً

---

(١) لقد ذكرت فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب تساؤلا عن شاب مصرى يتمتع بمركز ملحوظ فى العالم العربى سرقت منه فى لندن مجوهرات قيمتها خمسة وأربعون ألف جنيه استرلينى ، ونقلت ذلك النبأ عن أخبار اليوم الصادرة فى ١٧ يوليو ١٩٧٦.

وقد ذكر لى مصدر رفيع المقام أن مراسل الأخبار فى لندن قد أبرق لجريدته بعد أن اهتمت الدولة بهذا الخبر ، يؤكد أن هذه القصة مختلقة وقد كذبتها دوائر اسكوتلانديارد.

وقد كان يجب على أخبار اليوم أن تنشر تصويباً لخطأ وقع منها حتى لاتترك المشتغلين بنقد الشؤون العامة يقعون فى نفس الخطأ ، لذلك حذفت فقرات هذا الموضوع من هذه الطبعة ، فان الرجوع إلى الحق ، فضلا عن أنه فضيلة ، فهو واجب على كل مؤرخ يبغى الحقية ، وخاصة إذا كان استاذاً للتاريخ .

مرموقاً ينافس كثيراً مما سبقها من ثورات ، وقد جاءت لتهز المجتمع من الأعماق وتنضو عنه ما علق به من شرور وآفات ، وكانت ثورة أصيلة لولا تلك الطغمة التى استغلتها وعوقت مسيرتها وزحمت ثوبها الأبيض بكل هذه البقع السود

وللثورة حسنات ، وقد سجلتها يا سيدى الرئيس فى خطابى الاحتفال بها فى يوليو الماضى فأبدعت فى العرض والتسجيل ، وكنا نرجو وأنت تتحدث إلى شباب الجامعات فى الأسكندرية ألا تعرى ما قبل الثورة من حسنات حتى لا يظن هذا الشباب أن آباءه وأجداده كانوا يعيشون فى مجتمع الغاب ...

وكان عجبى أنك وأنت الرجل الذى رد جميع الحقوق لأصحابها تضن بنصفة الأموات من الأحياء !!

لقد عاشت مصر فى جهاد منذ ثورة سعد زغلول إلى أيام مصطفى النحاس .

لقد قاد الزعيمان جيلين من الأحرار ، ووضعا أسس الحرية والديمقراطية بالرغم مما بثه الملك والإنجليز فى الطريق من معوقات .. ولقد نفيا وسجنا وأهينا أبشع الإهانات ...

لقد أحيا كلاهما ميت الآمال ومهدا لثورتكم ، ولولا مصطفى النحاس الذى أباح الانتساب للكلية الحربية لجميع الطبقات لقامت الثورة على أكتاف أبناء الذوات لتزيد من حقوق من تسمونهم الإقطاعيين ، على حساب سائر الفئات !

ولنكون صادقين مع أنفسنا ومع الناس سجلت لكم هنا كيف كان حال الشعب بعد الثورة نهباً لمراكز القوى عندما أصبح مال الدولة عند رئيس الدولة من المال الخاص ...

وإذا كانت المخصصات الملكية قد قررت لكل أمير من الأمراء راتباً وميزات ، فان أعضاء مجلس الثورة يقتطعون من مال الشعب حتى اليوم « بقرار منهم » رواتب وميزات خرافية ، بالرغم من أن بعضهم يحسب اليوم على أصحاب الملايين بما عنده من تجارات واسعة ، أو مزارع تنتج أعداداً مهولة من البيض والدجاج وتغمر الأسواق بالفواكه والخضروات .

.. مئات الجنيهات راتباً شهرياً لكل منهم ، وسيارة أو سيارات لخدمة العضو وأسرته ، وعلاج بالمجان فى أفخم المشافى ، وانتقال بلا أجر بالقطر والطائرات ، وميزات أخرى سردتها لنا روزاليوسف فى أحد أعدادها منذ عام وبعض عام ...

ومن بين هؤلاء السادة النجب الذين كرموا أنفسهم فقرروا لذواتهم كل هذه المخصصات من ارتكب المظالم أو بارك الطغيان ، أو سكت عن كلمة الحق كأنه شيطان أخرس ليس له لسان ...!

ويقولون إن قراراً جمهورياً نشرته الوقائع المصرية منح الضباط الذين حضروا ليلة قيام الثورة معاش الوزير لواجب أدوه لوطنهم وشعبهم ، وقد بطل رواؤه ومغزاه بهذا الجزاء وضاع الثواب الذى كان لهم عند الله وللناس ...!

ويقولون إن نحو ستة آلاف مواطن يتقاضون معاش الوزير ، وبعضهم لا تزال له مخصصات أخرى لم تسحب منه بعد فصله أو بعد إحالته إلى المعاش ...

ويحدثنا الأستاذ موسى صبرى عن سبع عشرة سيارة كانت فى خدمة السيدة الجليلة حرم الرئيس الراحل أكثر من ثلاث سنوات حتى قرأت نقداً لهذا السرف فى مقال أو كتاب ، فغضبت وردت بعنف كثيراً من هذه السيارات التى بقى معظمها فى خدمة أولادها البُلَّغ الكُمَّل الغارقين فى الترف قصوراً وعزباً ومجوهرات وأنت تحنو عليهم وتأبى أن تقبض يدك فتسترد هذه السيارات المعين لقيادة كل منها سائقان ، وتأبى أن تقبض يدك عن سائر المخصصات التى يزعمون أنها تكلف الشعب نحو مليون من الجنيهات ...

ثم تطلب منا يا سيدى الرئيس أن نشد الأحزمة على البطون !!!

ثم ماذا ؟

تحنو على زوج ابنة عبد الناصر النابغة الثانى حاتم صادق الذى كان يرأس فى الأهرام قسم الدراسات والأبحاث ، ورضى بعض المرتزقة من أساتذة الجامعات أن يعملوا تحت لوائه وهو فى سن أولادهم وقبلوا أن يكونوا أدوات لشاب منحوه هم شهادة البكالوريوس ، وهى كل حصيلته من العلم والعرفان ...

تحنو على هذا الفتى الذى راح فى كتف القذافى يسب مصر

ويفترى عليها(١) ويتحدث عنها وكأنها عزبة أو ملك خاص ، وكأن المصريين فيها ملك ولى النعم حميه الراحل الذى له بصمات فى كل مأتم أقيم هنا أو هناك !

كيف تغفر له وأنت لا تملك هذا الغفران بحال ، لأن المصريين ليسوا عبيد إحسانات الرئيس السابق أو غيره من الرؤساء .

إن المصريين من حقهم أن يطالبوا بمحاكمة هذا الشاب المغرور لما صدر عنه فى حق مصر وجيش مصر من إهانات .

وإن المصريين ليسألون الرئيس السادات كيف ينصت ارجاء أسرة عبد الناصر ويعفى هذا الفتى المدلل والوريث المفتون من حق الوطن عليه ، فاذا هو وحده من بين شباب مصر يستثنى من شرف التجنيد كما كان الحال مع أبناء الأمراء والذوات ! ...

يعيبون على ما قبل الثورة الاستثناء فى درجة تمنح لقريب أو صهر لرئيس الوزراء ، ثم تستثنون مواطناً — مهما يكن نسبه — وتبيحون له حق الفرار من المعركة وهى تهمة عقوبتها الإعدام ؟! ..

رحم الله أخاك ، فقد كان أول الشهداء

ثم أقول فى قضية المعتقلات والسجون فى عهد الملكية والأحزاب وهى القضية التى حدثت الشباب عنها فى خطابك الأخير .

أقول وأنت المعتقل القديم ، أحقاً هناك وجه شبه لما كان قبل الثورة وبعدها من سجون ومعتقلات ؟ .

---

(١) راجع مقالاً لموسى صبرى فى أخبار اليوم فى ١٨/١٠/١٩٧٥ .

وهل كانت المعتقلات فى عهد حكم الأغلبية الوطنية كالمعتقلات حين ولى الحكم صنائع الملك والإنجليز ؟

لقد قبضت النيابة العامة على الدكتور حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة لسان حزب الأحرار الدستوريين ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٤ وكانت التهمة أن الكاتب سب رئيس مجلس الوزراء بما يسقط اعتبار الرئيس عندمواطنيه ، وكان رئيس الوزراء حينذاك سعد زغلول فكيف كانت أيام الدكتور هيكل فى المعتقل فى ذلك الحين ؟

لقد كانت نزهة واستجماماً للكاتب الكبير ! أمر فيها سعد زغلول أن تتاح للرجل كتابة افتتاحيات جريدة السياسة وهى لسان خصوم سعد حتى لا يحرم المواطنون من رأى المعارضين !! ...

لقد جربت أنت نفسك المعتقلات والسجون ، فهل كانت حقاً كالسجون والمعتقلات فى عهد سلفك العظيم ؟

إنى أعلم أن سجين الرأى فى تلك الأيام كان ينام على سرير ، ويأتيه الطعام من بيته أو من جروبى أو من عند حاتى الكباب ! وكان يقرأ الكتب والصحف ، ويدخن السجاير والسيجار ، وكان سجين الرأى المملق — على ما سمعت من بعض صحبى المعتقلين إذ ذاك — تعينه الحكومة فى الشهر بخمسة جنيهات يوظفها فى شراء ما ينقصه من حاجات ، وكان من حق المعتقلين من أصحاب الرأى والفكر

أن يتنزهوا فى فناء المعتقل فى الصباح وفى العصارى وفى الأمسيات ، ويلتقى الجميع فى هذه النزهات ، وسجل لنا ذلك صديقك الحمامصى فى كتابه (حوار وراء الأسوار) وهو يتحدث عن لقائك به كل يوم فى المعتقل ، وكيف كنتما تتدارسان أحوال البلاد ...

ثم جاءت سجون ومعتقلات ما بعد الثورة ، فكانت جناناً سعد فيها عشرات الألوف من المواطنين على النحو الذى حدثتنا عنه أحكام القضاء فى قضية المستشار جريشة وقضية الأستاذ مصطفى أمين واتهامات النائب العام فى قضايا التعذيب وفى مقدمتها قضية كرداسة وقضية كمشيش ، وغير ذلك من أحكام واتهامات يشيب لتفاصيلها الولدان ، وقد نشرتها الصحف والكتب ، وحسبنا ما نشرته الصحف والكتب من بيانات لننصف الماضى البعيد من الماضى القريب ، وإن كان الإنصاف على حساب الأحرار فى الجيلين على السواء .

وكى نكون عادلين ، يجب أن نذكر لأولادنا أن المصريين عرفوا التعذيب أيضاً فى السجون الملكية يوم مارسته حكومة صدقى باشا فى الثلاثينات ، فى قضية البدارى المشهورة ، وكان لذلك ضجة أثم فيها رئيس النقض حكومة الطاغية واستقال على أثر ذلك احتجاجاً وزير الحقانية (العدل) إذ ذاك ، وسقطت الوزارة بعد قليل وسقط معها نظام الإرهاب ....

وعرف المصريون الإرهاب فى الأربعينات حين تأزمت الأمور

بين حكومة السعديين والإخوان المسلمين ، وقد رد الإخوان على التعذيب باغتيال اثنين من رؤساء الوزارات ...

لقد كان عهد الملكية مليئاً بالشرور والمآسى والفساد ، وكذلك لم يخل عهد سلفك من نظير لهذه الموبقات ، وإن كان التفنن فى هذه الحقول على عهده أشد ضراوة مما أثر عن العصور الوسطى أو عرف أيام هولاكو وكنجز خان ...

سمعنا فى العصور الوسطى وفى شريعة الغاب عن هتك الذكور لأعراض الإناث ، ولم نسمع أن ذكراً بين الحيوانات هتك عرض ذكر مثله مهما تكن الدوافع والأسباب ، غير أن هذا حدث فى سجون الثورة ومعتقلاتها ، وكان يحدث فى حضرة المحققين فى لجان التعذيب .

هكذا قال لنا النائب العام ، وقالت لنا أيضاً القضايا والأحكام؟

يا سيدى

لقد قمت بثورة مايو ، وقلت إنها ثورة لتصحيح مسار ثورة ٢٣ يوليو ، وإذن فقد ضلت الثورة الأم طريقها ، وحين انحرفت كانت أكثر بغياً من كل عهد مضى !

ومن المسئول عن ذاك البغى وذاك الانحراف ؟

المسئول صاحب النظام ، وبعض أقرانه ممن قام على أكتافهم ذلك النظام ، ثم من بعدهم تلك الطغمة التى أمسكنا ببعض أفرادها ، ولا يزال أخطرهم يتمتع بالحصانة وراء السجون والمعتقلات من

أمثال شعراوى جمعة وسامى شرف وغيرهما من الطواغيث العظام ..

دعنا نقلها صريحة وإن أغضبتك هذه الصراحة ...

إنهم هناك لتآمرهم على ما رجوته من حرية واستقرار ، ولكنهم لم يسألوا بعد عما ارتكبوه قبل عهدك من آثام ، فارفع يدك يا سيدى ودع العدل يأخذ مجراه ، حتى يرى الناس المقارنة واضحة جلية ، بين العهدين ، عهد ما قبل الثورة ، وهو عهد لا يخلو من الشرور والآثام ، ويتحمل هذا كله الملك والإنجليز وأدواتهما من حكومات الأقلية والطغيان .

عهد ما قبل الثورة عهد لا نهون من شره ، غير أننا لا نبخسه حقه أو نحجب منجزاته ...

وعهد ما بعد الثورة ، عهد رجونا زماناً ، وسعينا إليه أجيالا ، ودقت بالفرح قلوبنا حين أذن المؤذن بقيامه ...

عهد ما بعد الثورة جريمة نرتكبها إن أغفلنا أفضاله ، وجريمة أيضاً إن أخفينا بالرتوش ما كان فى وجهه من تغضن وسمات قباح .

لكم دينكم ولىَ دين

نحن لا نستعديك عليهم يا سيدى الرئيس ، فنحن نؤمن بحكمتك القائلة بأنه لا يجوز مهما نختلف مع خصومنا أن يُقهر لهم رأى أو يكبت لهم فكر وأنهم أحرار مهما تجاوزوا فى خلافهم معنا أصول الحوار ، وإلا كنا مثلهم نفرض الرأى بالسوط والعصا ، ونبث أفكارنا بالسجون والمعتقلات .

إنما نستميحك عذراً حين نسائل أنفسنا كيف تخصنا وحدنا بالعتاب المرير حين نتعرض للنظام الناصرى بالنقد الموضوعى لأدرانه وأشجانه ، ولا ترد على هؤلاء القوم فيما ينشرون من كتب ومقالات ، وهى لا تقف عند تزوير التاريخ البعيد والقريب ، بل تزور واقعنا الملموس . !

لم نسمع منك نقداً لما سجله زميلنا حسنين هيكل فى كتابه وهو يقارن بين انتصار عبد الناصر فى هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ وبين هزيمتكم فى نصر أكتوبر ١٩٧٣ ؟ ! ...

لم تقل له إنه يضلل الجيل الصاعد كما قلت لنا ، ولم تعنفه لأنه استغل حرية القلم ليزور الواقع والتاريخ !

لم تقل له إن عبد الناصر لم ينتصر لا فى سنة ١٩٥٦ ولا فى سنة ١٩٦٧ بل انتصر فقط فى موقعتين أخريين ...

انتصر فى كرداسة وكمشيش ؟ ! ...

لم تناقش السيدة هدى عبد الناصر فيما ذكرته من دفاع عن والدها العظيم فى كتاب كُتب لها فى جريدة الأهرام ، وهى تتحدث عن الأسباب التى ترك فيها عبد الناصر مراكز قواه تسرق وتنهب وتهرب ، وتقتل وتعذب ، وتنتهك أعراض النساء والرجال قبل الهزيمة وبعدها وتردنا بذلك إلى العصور الوسطى ، بل تردنا إلى عصور الغاب ، فقد ذكرت أن والدها ، غفر الله له ، ترك هذه الوحوش تعيث فى الأرض فساداً وتزرع فيها الشر والحقد ، ولم يتعرض لها بسوء خشية اضطراب المسيرة ونحن فى حالة حرب كما تقول ، كأن الحرب شنت على المصريين لا على إسرائيل ! ...

لم تقل لها يا سيدى إنها تضلل الجيل الصاعد وتزور التاريخ ، لأنك استطعت بعد ثمانية أشهر من وفاة والدها ، ولم تكن فى قوته ولا فى سلطانه ، استطعت أن تقضى على مراكز القوى الطاغية الباغية ، لأنك رأيت فى القضاء عليها ضرورة لحماية الحريات ، أما فى عهد والدها فقد كانت هذه المراكز ترتكب المعاصى والآثام حتى لا تضطرب مسيرة النظام ويهوى صاحب النظام !

ولم تقل للسيدة الفاضلة إنها تزور التاريخ وتضلل أبناءنا حين تزعم أن نصر أكتوبر كان حصيلة لحرب الاستنزاف التى شنها والدها على أرضنا فى الضفة الشرقية من القناة ! لم تقل لها إن تلك

الحرب إن كانت قد استنزفت من العدو قيراطاً فإنها استنزفت منا أربعة وعشرين قيراطاً ...

لقد بذرنا ذخيرتنا فى غير طائل ، واستشهد من أبنائنا حملة المؤهلات العالية المئات فى كل يوم ، ولم نتقدم خطوة على الأرض أو نسيطر على مساحة فى السماء ، حتى أنقذنا الله بعرض روجرز الذى قبله الرئيس الراحل فوراً وهو فى قمة السعادة ، وأعلن هذا القبول وهو فى زيارة لروسيا عند أوليائه العتاولة ، واستخفه الطرب فلم يأبه لضيقهم أو اعتراضهم .

وهكذا نجا والدها بعرض روجرز من نكسة أخرى ، وأنقذ من الورطة التى انزلق إليها وسميناها حرب الاستنزاف !! ...

ولم تقل للأستاذ « بُورِين » .. الذى أراد أن يقلد سكرتير نابليون ، إنه يضلل الناشئة ويزور التاريخ ويستغل حرية القلم بما نشر من مقالات فى روز اليوسف .

ولم تقل له وهو السكرتير الذى منحه عبد الناصر لقب الوزير وراتبه ، إن صاحب مثل هذا اللقب ، لقب الوزير ، لا يصح أن ينشر هذه الترّهات عن صديقك رفيق السلاح وهى تزخر بالإهانات له ولسيرته ولطرائق نظره فى أمور الحياة ، دون أن يدرى أنه ذم سيده من حيث كان يريد له الثناء !! ...

إن « بورين » سكرتير بونابرت حين كتب المذكرات سندها بالوثائق وأصلها بالأوامر الرسمية ولم يعمد إلى الشعارات والتهريج ،

ولم يسجل الأشياء الصغيرة الحقيرة عن ولى نعمته كما فعل الجيار وزيرنا السكرتير سليل البيت الكريم ، فأساء إلى الثورة وأساء إلى مفجر الثورة كما يسمونه ، وصور النظام عصابة ، والحكم غنيمة ، ومصر ضيعة كالضيعة التى يملكها السكرتير الوزير أو يملكها آله فى محافظة البحيرة وعاصمتها دمنهور ...

رحم الله النحاس باشا ، فقد كان له هو الآخر سكرتير يتعلق بسيارته كما كان يتعلق السكرتير الوزير بسيارة زعيمه الخطير ، وكان مثله (فتوة) له قوة عشرة من الرجال ، وقد حسدوه ونفسوا عليه النعمة حين منحوه الدرجة الخامسة ! وكان كلما أقيل النحاس فصلوه ! ...

ولم يكتب الرجل مثل تلك المذكرات التى كتبها الجيار ، والتى ما قرأها مواطن إلا وأصابه الدوار والغثيان ...

ولقد كان اللورد إيدن حين كان الكابتن إيدن أو المستر إيدن سكرتيراً لتشرشل رئيس الوزراء ، ولم تمنحه الوظيفة لقب الوزير ، بيد أنه كان أهل علم ، وكان يمارس عمله فيعد خطب الرئيس ، ويدرس ما يكلف به من موضوعات ومقترحات ، ويعلق عليها بالرأى السديد ، وكثيراً ما أخذ تشرشل بوجهة نظره فيما سجله من آراء، وكافأه تشرشل على ذكائه وألمعيته وجده فعينه وزيراً للخارجية ومع ذلك لم يتعلق الرجل يوماً بسيارة زميله رئيس الوزراء ، مع أنه كان هو أيضاً ضابطاً ، وكان فى شبابه « فتوة » ولم يكن « خرِعاً »

غير أنهم هناك فى البلاد المتحضرة يعرفون قدر الوزارة والوزير ...

وكان كامل سليم سكرتيراً لسعد زغلول ، وكتب لنا الرجل مذكراته وقرأها الملايين فتعرفوا على سعد وثورته فى سنة ١٩١٩ وأحاطوا بتاريخ فترة هى أعظم ما مر بنا من فترات فى تاريخ مصر الحديث.

ألم يكن فى وسع السكرتير الوزير أن يقرأ مذكرات كامل سليم ليتعلم كيف يكتب أهل العلم مذكراتهم عن عظماء التاريخ ، وليعفينا من هذا الحشو الذى ملأ به صفحات من المجلة وكان يمكن أن يكتب فيها شىء مفيد ؟

وكان محمود سليمان غنام سكرتيراً أيضاً لسعد زغلول زعيم مصر الخالد الذى كان معتقلاً فى عهد عبد الناصر كما اعتقله الإنجليز فى مالطة وسيشل ، وتفوق الرئيس الراحل عليهم ، فحظر ذكر اسمه فى الصحف والمجلات ، وحذف من كتاب التربية الوطنية الذى وزع على تلاميذ المدارس فى سنة ١٩٥٤ دور الزعيم فى ثورة ١٩١٩؟!

وتدرب غنام وتعلم على يد سعد العظيم حتى أصبح فيما بعد وزيراً ، ولم يفخر كما افتخر السكرتير الوزير بأنه « خادم » الزعيم بل سجل فى كتاب أنه كان ابناً لسعد وتلميذاً يعرف مقام زعيمه العتيد ، ولم يتعلق قط بسيارة الزعيم ! ، وتسامى فيما كتب ولم ينزل إلى ما نزل إليه السكرتير الوزير الذى له فى بيئته أصالة وفى تاريخ أسرته سند يرفعه عما نزل إليه من تافه الحكايات وفطير الأحاديث ؟ !! !

وترى وأنت تؤدبنا يا سيدى الرئيس وتتهمنا بتضليل الناشئة وتزوير التاريخ ، وتقول لنا هذا عيب وهذا لا يليق مع أننا نروى وقائع عشناها وعاشها معنا الملايين ، ترى هل قرأت « الصامتون يتكلمون » وفيه اتهم رفاق السلاح زميلهم بكل قبيحة ولم يتركوا من تصرفاته شيئاً إلا وأثموه ؟

ألم يتهمه واحد منهم بأنه كان يرتب المؤامرات ويشترى المتظاهرين ليطيح بمحمد نجيب ، وأنه أصر إن عجز عن مطمعه ذاك أن يزيحه بأى طريق ، وألمح إلى طريق الدم إن فشلت مظاهرات العمال ولم ينجح إضراب المضربين ؟

أما كان يجدر أن ينال منك صاحب هذه الرواية عتاباً ولا أقول توبيخاً وهو القائل فى عبد الناصر « زعيمنا وقائد نهضتنا ورائد زحفنا المقدس ... » وهو القائل فى سياسته « فى ظل قيادته السديدة وزعامته الرشيدة ... » ووصفه بأنه « القائد الملهم الذى سيقود الوطن من نصر إلى نصر » ؟

وإذا كان الصامتون — باستثناء كمال حسين الذى عاش مأساة نعرفها جميعاً — صادقين فى حملتهم على زميلهم وصفيهم وقائد مسيرتهم ، فنحن أيضاً كنا صادقين فيما رويناه عنه وإن لم نذهب مذهبهم فى الطعن والتجريح ...

وإذا كنت تلصق بنفسك نصيباً فى مسئولية الحكم أيام عبد الناصر

ألم يكونوا هم أيضاً مسئولين مع الراحل فيما نزل بالبلاد من نوازل وفيما أصابها من نكبات ؟

أما كان هؤلاء فى حاجة منك إلى عتاب كما عاتبتنا وهم يروون عن عبد الناصر أبشع ما روى من أخبار ، وليس لهم عذر فيما رووه لأنهم شركاؤه مشاركة مباشرة فى تلك الأحداث الحزينة ، كذلك الزميل الذى قص حكاية النزعات الدموية فى سلفك بعد أن مدحه فى حياته، إذ جلس على منصبة القضاء فى محكمة الثورة أو مهزلة الثورة يصدر أحكاماً ظالمة باغية فيمن كان لهم فى تاريخ مصر أشرف المواقف وأكبر التضحيات ؟ وكان ثالثهم يلعب فى مصر دور (شاخت) فى عالم الاقتصاد حتى انهار اقتصاد البلاد ! ؟ ..

ألم يكن هؤلاء السادة يتصرفون فى مواقعهم بلا ضابط ويقضون فى الأمور بلا رقيب ، وارتفعوا بذواتهم فوق النقد ، وحكموا بلادنا هم وزملاؤهم الآخرون من أعضاء مجلس الثورة كما كان يحكمها أسوأ الفراعنة قديماً أو كما كان يحكمها قراقوش فى عصور الظلام أو كما كان يحكمها محمد على فى العصر الحديث وإن كان محمد على يتميز بأنه شيد بلداً وأسس دولة ، وأبرز كفايات وحقق منجزات ، وليس كعهدهم السعيد الذى سقطت فيه مصر فى عين المجتمع الدولى ، وقضى فيه على الإنسان المصرى ، وتدهورت فيه منجزات أجيال سبقتهم ، وبدت الحكومة عصابة تنهب وتسرق وتقتل وتشرد ؟ ...

أما كان يجدر أن تحاسبهم على ما كتبوه وهم يتنصلون من كل

هذه المصائب التى عمت البلاد بجهدهم المشكور ! وتقول لهم كما قلت لنا : استحوا يا قوم فآثاركم قائمة بيننا ولن تستطيعوا أن تضللوا أبناءنا أو تزوروا التاريخ ؟ ! ...

أيرضيك أن يعمد ثالثهم فى كتاب هدى عبد الناصر إلى تزوير التاريخ الذى يعرفه العالم كله ، فيهين الإمبراطور نابليون بونابرت ويسقط من اعتباره عند العسكريين والمدنيين جميعاً ، فيعقد مقارنة بينه وبين الراحل عبد الناصر ؟

إن صفة واحدة لم تجتمع فى الإثنين ...

لقد كان بونابرت أعظم عسكرى ظهر فى تاريخ البشرية ، وقاد الجيوش الفرنسية بنفسه فى البرد البريد والحر الحرور ولم يقدها إلى الفشل والدمار من حجرة مكيفة الهواء ؟

لقد عاش حياته كلها بين قعقعة السيوف وصليلها ،وبنى أمجاده فى ميادين الوغى يقود بنفسه جيشه عبر الدماء والغبار وصهيل الخيل ، ورئيسنا الراحل منذ عاد من حصار الفالوجة لم يمارس وظيفته قط ، بل تحول إلى مدنى هوايته الحكم على النحو الذى مل الناس من وصفه ، وكلت أقلامنا من شرحه !

وكانت لنابليون مواقع حربية خالدة كموقعتى مارنجو وأسترلتز ولم يهزم قط فى أى حرب خاضها ، وحتى حين تحققت هزيمته فى الوقعة الوحيدة والأخيرة لم تهزمة الدنيا التى تقلبت عليه وتكاتفت ضده ، بل هزمته الطبيعة حين أغرقت مدافعه فى الأوحال التى

نشأت عن الأمطار الغزيرة التى نزلت على غير ميعاد ... وما أظن الرئيس عبد الناصر كان له فى مثل هذا التاريخ العسكرى أى وجه مماثل ، أو شبه أو نصيب ...

وحين نظر نابليون فى شئون الداخل بعقله الراجح وعلمه الغزير ولماحيته منقطعة النظير ، أبدع وأجاد ، ونظم الأمور فى إطار من الجدية والعمق والتركيز ، ولم يترك الحكم فوضى بيد حوارييه يفسدون أعماله ونواياه ، ولعل من أعظم منجزاته المدنية « قانون نابليون Code Napoléon » الذى أشرف بنفسه على صياغته ، وترك به لفرنسا والعالم أعظم تشريع مر بالتاريخ ، ونحن فى عهد عبد الناصر عصفنا بالقانون وفصلنا القضاة ، وعينا القصابين من أمثال الدجوى ليحكموا على الأحرار وأصحاب الفكر بالإعدام ؟! ..

وهل جاءك نبأ كتاب كمال رفعت أمين الفكر والدعوة الذى نشره وسماه .. « ناصريون ؟ .. نعم ؟ » .

إنه كتاب ممتع فى أسلوبه ندرت فيه أخطاء النحو واللغة ، وهو جدير بالقراءة على سبيل التفكهة لأنه صورة ممتعة لما تضمنه الميثاق وسجله بيان مارس ، وهو متعة فيما احتوى عليه من الشعارات الطنانة والألفاظ المجهلة ، والعبارات التى تشبه الأحاجى ، ولا يفهمها إلا صاحبها وقد لا يستطيع !! .

وسكرتير الفكر هذا — ولأول مرة فى التاريخ يكون للفكر سكرتير — يدعى أن الناصرية باقية تزدهر وتزدهر وهى كل يوم

فى ازدهار ، وأن الرجعيين أمثالنا ذاهبون إلى جهنم بجللهم العار ، وأننا واقفون على رمال سافية كل يوم تغوص فيها أجسامنا بمقدار ، وأن نعال الناصرية سوف تطأ رءوسنا حين تغطيها الرمال ، ومن تحت نعالهم أى من فوق رءوسنا سوف تعود الناصرية إلى مجدها القديم ، وتعود معها السجون والمعتقلات ، وتنكس من جديد أعلام الحرية وسيادة القانون ، وتصبح مصر مرة أخرى ضيعة لسكرتير الفكر ومن لاذ بأفكاره من السذج والمعتوهين ، ويا لها من أفكار ؟! ...

كان بودى يا سيدى الرئيس أن تقرأ هذا الكتاب لترى كيف يضللون الجيل الصاعد ويسممون أفكاره ، ويمجدون له الساتر الترابى الذى يقف خلفه الناصريون عرايا يخشون أن يهطل المتن فيذوب التراب !! ...

كان بودى أن تقول لهم ما هذه النكتة السمجة السخيفة التى تسمونها الناصرية ؟ ألم تسقطوا جميعاً فى انتخابات مجلس الشعب حين لبستم قميصها المهلهل أمام الناس ؟

كنت أرجو أن تقول لهم استحوا فليس هناك ناصرى إلا إذا كان مأجوراً أو موتوراً أو جاهلاً أو مخدوعاً أو فقدالعقل والاتزان ، فاذا أصروا بعد ذلك على ناصريتهم فان الخنازير وحدها لا تسعد إلا إذا تمرغت فى الوحل والطين ؟

وما دمتم قد قرأتم مقالاتنا وكتبنا ، فقد قرأتم بالطبع مقالات كتب إخواننا الشيوعيين .

وقد عجبت أنكم لم تجدوا فيها ما يستحق النقد والتقريع ، فخلت خطبة مارس وما تلاها من خطب من أى ملاحظة أو تعليق عما كتبوه سواء فى شئون الدين أو الدنيا ، كأن ما تعرضوا له من تعاليم الدين وأفكار أئمة الإسلام لا يرقى إلى مرتبة عبد الناصر الذى ما خلت خطبة من خطبكم إلا ووجهتم السهام لشانئيه ! ...

أنا لا أناقش إخواننا الشيوعيين فى الصنم الذى مجدوه وعبدوه ، فلهم دينهم ولى دين غير أنهم حين يلبسون لينين قميص المسلمين ويزعمون أنه كان حامى حمى الإسلام ، وهو أكفر من كفر وأعتى زنديق عرفه البشر ، لا يجوز أن يمر هذا التضليل لأولادنا ، وهذا التزوير للواقع والتاريخ دون أن يكون لسيادتكم رأى فى الموضوع (١)

وهل صحيح « أن حرية الكلمة والشورى بكل أصولها » من صنع الماركسية ؟ وأن زعيم الشيوعيين فى مصر يستغرب أن ذلك موجود فى « أصول التشريع الإسلامى ؟ »(٢) .

كيف فاتكم يا سيدى الرئيس أن تعلق فى خطبة من خطبكم على أن هذا التضليل والتزوير إنما هو من زعيم الشيوعية فى مصر تمسح بالإسلام ليوهم السذج بأن الماركسية تأخذت أصولها من ديننا الحنيف ؟

وهل صحيح أن من لا يدين بالشيوعية رجعى وعميل ؟

---

(١) إلى محرر الأخبار فى ١٤/١١/١٩٧٥ .

(٢) أخبار اليوم فى ١٩/٦/١٩٧٦ .

وأنت صاحب شعار العلم والإيمان ، فهل هذا الكلام يتفق مع العلم ويمضى مع الإيمان ؟

لينين يدافع عن الإسلام والمسلمين والشيوعيون فى روسيا حولوا الجوامع والكنائس إلى حظائر للماشية وإن أكرموها جعلوها مكاتب الموظفين ؟

لينين يدافع عن المسلمين ؟ ومسلمو روسيا مات منهم الألوف فى منافى سيبيريا وسجون موسكو وغيرها بعد تعذيب طويل أو قصير ؟

كل ذلك لقيه المسلمون فى روسيا لأنهم تمسكوا بعقيدتهم الإسلامية وإيمانهم بوحدانية الله ، ورفضوا دين الإلحاد الذى مكن له فى روسيا لينين ومن بعده ستالين وسار على دربهما وقفى على أثرهما سائر الزعماء الشيوعيين ؟

كيف يصور لنا واحد من الصحفيين المصريين لينين الزنديق داعية للإسلام وحامياً للمسلمين ؟

أين ما يسمونه ميثاق الشرف الصحفى ؟ أين المجلس الأعلى للصحافة ؟ .. أهما حقيقة أو هما من الرموز والشعارات ؟

نحن لا نستعدى أحداً على أحد ، وإنما نريد أن يُسأل هذا الكاتب عن وثائقه التى تؤكد رعاية الشيوعية للإسلام والمسلمين ؟ فإن عجز حق للسيد الرئيس أن يعلن على الملأ فى أول خطاب له أن الشيوعيين يضللون الجيل الصاعد ويزورون التاريخ ... !

لقد اتهمتنا يا سيدى الرئيس بالتضليل وتزوير التاريخ لأن لنا

رأياً فى عبد الناصر تشهد على صحته الملايين ، فكيف تستثنى إخواننا الشيوعيين مما ألصقته بنا وليس إلى جانبهم أحد من المصريين يؤكد صدق ما يزعمون ؟

وكيف نكون وحدنا المضللين المزورين ، والشيوعيون يزعمون للناشئة الساذجة التى تنقصها الخبرة والتجربة ، أن حرية الكلمة والشورى لم تعرفا فى العالم إلا فى تعاليم ماركس ولينين ، وأن الأديان السماوية تفتقر إلى الوضوح فى شرح معانى الحرية والشورى ، والديمقراطيات الغربية تمارسها بجماعة من الرأسماليين العفنين المستغلين الفقراء والمساكين ؟

وحتى يُفيق المخدوعون نذكرلهم أن الكلمة التى تنشر فى أى صحيفة فى البلاد الشيوعية تخضع للرقابة والرقيب ، ولا يمكن لمواطن أن ينشر رأياً يخالف النظام الشيوعى فى جريدة أو كتاب ، ولو نشر هذا الرأى بطريقة أو أخرى أدخل صاحبه إلى مشافى المجاذيب ، لأن صاحب الكلمة الحرة فى الوطن الشيوعى معتوه أو مجنون !! ..

والكلمة المذاعة أو المرئية حكر على الحزب الشيوعى وحده ، وإن لم يلتزم المذيع بالنص المفروض عليه ، أو أدلى برأى لا يستقيم وخط النظام نقل هو الآخر إلى السجون أو منافى سيبيريا ، وإن ترفقوا به اعتبروه ملتاثاً وأودعوه مصحات المعتوهين ! ...

إن ماركس وورثته يعتبرون حرية الكلمة والشورى أمرين يخصانهم وحدهم ... وهم فقط الأحرار ، والشورى يجب ألا تتاح

لروسى خارج أسوار الكرملين ، تماماً كما يستمتع أعضاء الحزب وحدهم دون المواطنين جميعاً بالفجل والبصل الأخضر والخيار وهى من الخضر النادرة ولا تباع إلا بالعملات الصعبة ، غير أنها تزرع أيضاً للقادة وأعضاء الحزب فى حقول من زجاج مكيفة الهواء ...

ولأعضاء الحزب ولجانه الرئيسية أحياء برمتها لا يقطنها غيرهم ، ولا يسمح لمواطن بارتيادها أو العبور منها ...

ولأعضاء الحزب وحدهم حق امتلاك السيارات الفخمة المستوردة من أوروبا وأمريكا كالمرسيدس والكاديلاك وما فى مرتبتهما من سيارات .

ويبدو أعضاء الحزب وحدهم فى بزات قماشها إنجليزى ، ويطوقون رقابهم (بكرافتات) من صنع جاك فات وغيره من منتجى أعلى وأغلى أربطة العنق فى فرنسا ...

وينتعل أعضاء الحزب وحدهم أحذية واردة لهم خاصة من إيطاليا وإنجلترا وسويسرا ...

ويتوسط شوارع موسكو الفخمة طريق يحدده خطان وقد خصص لسيارات المسئولين فى الحزب وللسادة الحكام ، وحرم حتى على سيارات الإسعاف والإطفاء أن تستغله فى خدمة لمريض أو إطفاء لحريق ، ومن خرق القانون واستعمل الطريق الخاص أخذته الشرطة من قفاه إلى حيث يوقع عليه القصاص ؟! ...

بهذا كله وبأكثر منه روى لنا تلك الحكايات صديق عمرى صلاح الشاهد (١) وكان أقرب الناس إلى قمة البلاد ، وزار موسكو فى صحبة تلك القمم تسع عشرة مرة ، فأذهله ما رأى من نعيم يستمتع به زعماء الشيوعيين فى كل موقع هناك .

إن الشيوعيين الذين يطالبون اليوم بحرية الكلمة ونظام الشورى ويطلبونهما بلا قيود أو حدود ، إنما يطالبون بهما زلفى إلى كراسى الحكم فإن وصلوا إليها عفا الزمن على الكلمة الحرة وأصبحت الشورى فى خبر كان ...

يقولون إنهم ماركسيون ولكنهم مسلمون ، وأنهم من فرط تدينهم يعتمرون ويحجون ، وينشرون صورة وصفية لنبى المسلمين ، ولا أدرى كيف يكون الإنسان على دين ماركس الذى يرى الدين ، أى دين ، أفيوناً ، وفى الوقت نفسه يرى الماركسى فى الدين ملاذه ، ويطوف بالبيت ويزور مثوى الرسول ، ويستدر دموعه عند كليهما كأنه يبكى كما يبكى المؤمنون الصالحون !

وإخواننا الشيوعيون يلتمسون الوسائل لتحقيق حلمهم فى مركسة المصريين ، فهم يختلفون إلى الجوامع والمساجد كسائر المؤمنين ،

---

(١) الأستاذ صلاح الشاهد شغل منصب كبير الأمناء فى عهدى عبد الناصر والسادات ، ومن قبل كان إلى جوار جميع زعماء ما قبل الثورة ممن تولوا رئاسة مجلس الوزراء ، وله كتاب حديث اسمه « ذكرياتى بين عهدين » وهى ذكريات لأيامه فى المناصب الدقيقة التى تولاها وعاش أحداثها الكبيرة بمالم يعشها أحد من الناس .

وينشرون فى صحفهم مقالات تفيض بالخشوع والإيمان العميق ؛ وينشرون مقالات أخرى يبدو فيها الإلحاد أوضح ما يكون !

بل إنهم يلبسون هم أيضاً قميص عبد الناصر ، بالرغم من أن نظامه مات فى ظله شيوعيون وعذب فى أعطافه شيوعيون ونزل منهم المئات فى المعتقلات والسجون ، ولم يكن الرجل إلا عدواً لهم ولعقيدتهم ، وهو القائل لمندوب جونسون « ليس لى بالشيوعية علاقة حب ... وأنا أعتبر الشيوعيين عملاء غير وطنيين وغير مؤمنين » ... !

وننقل هذه الفقرة من مذكرات علوى حافظ وعليه الوزر إن كان غير أمين ، أو كان مفتعلا لهذه المذكرات ونشرها سعياً وراء الشهرة كما يزعمون(١) :

ولا يعنينا قال فيهم الرئيس الراحل ذلك أو لم يقله ، فهو — غفر الله له — كان يرضى ويسخط حسبما تملى الظروف ، وسيرته مع الشيوعيين كانت يوماً وكأنها علاقة بين كبش وقصاب بسكين !..

ومع ذلك ينافسون غيرهم فى إرث عبد الناصر ويرتدون قميصه كما ترتديه اليوم جماعة فرنجية فى لبنان ، وهم جميعاً عاشوا سنوات فى حياته على سب الناصرية والناصريين !

وإخواننا الشيوعيون يضيقون ذرعاً إذا خطت حكومة السادات

---

(١) من مذكرات علوى حافظ المنشورة فى الأخبار فى ١٩٧٦/٨/٢.

خطوة نحو السلام ، ويعتبرون مثل هذه الخطوة تصفية لقضية فلسطين ، وإذا آزرناه فى هذا الاتجاه اتهمونا بالتصهيونية والرجعية والعمالة والإمبريالية ، وغير ذلك من ألفاظ الهجاء التى يفيض بها قاموس ماركس ولينين ...

وللذكرى فقط أسجل للمخدوعين فى الشيوعية والشيوعيين أن روسيا كانت الدولة الثانية التى سبقت العالم كله فى الاعتراف بإسرائيل سنة ١٩٤٨ ...

وأذكر أن روسيا قبضت يدها عن تزويدنا بالسلاح لا فى عهد السادات فقط بل فى عهد عبد الناصر أيضاً . وكل ذلك حتى لا نهزم إسرائيل ، وحتى تبقى إسرائيل شوكة فى جنب العرب ، وحتى تبقى مصر تستنزف أموالها وخيرة أبنائها فى حروب فاشلة ، ومن ثم يكون للشيوعية مجال فى شعب أسخطه الفقر وأفسده الحرمان ، وأهدرت كرامته الهزائم على مدى ربع قرن من الزمان .

وإذا رأينا أن فى يد أمريكا وحدها — وهذا رأى الروس أيضاً — حل القضية ، وأنها وحدها القادرة على توجيه إسرائيل إلى السلام والنزول على مطالب العرب ، قالوا أنتم عملاء الاستعمار ! ...

وأسأل إخواننا الشيوعيين ، أين هو الاستعمار ؟ ومن فينا العميل فى هذا الميدان ؟

لقد انتهى استعمار الفرنسيين والإنجليز من العالم كله ، ولم تعد لهم — على قدر علمى — مستعمرة واحدة فى أى مكان .

وحتى الأمريكان الذين تورطوا فى الشرق الأقصى إلى جانب قطاع عريض من أبناء تلك البلاد الكارهين للشيوعية قد تخلصوا من هذا التورط وقامت علاقاتهم بحكومات الشرق الأقصى الجديدة على شيء من المودة أو على شيء من الحياد .

وأسأل إخواننا الشيوعيين ، هل ما حدث فى المجر سنة ١٩٥٦ حين قامت جحافل الروس باحتلال ذلك البلد رغم أنف أصحابه وثبتوا استعمارهم هناك فى بحار من دم المجريين ، هل كان هذا عملا من أعمال السلام الذى جعلوا له جائزة باسم ربهم لينين ؟

وإذا جاءوا بعد ذلك بسنوات واحتلوا تشيكوسلوفاكيا وهى من أرقى الدول الأوروبية ، ونفوا زعماءها وحرقوا شبابها وهدموا بيوتها ومعالمها ونقلوا إلى بلادهم مصانعها ، هل كان هذا ملاً عظيماً يستحق التحية والتمجيد ، ويؤكد أن روسيا حقاً نصيرة للضعيف من الشعوب ؟ ! ...

وكيف يقول لنا الشيوعيون إن روسيا نصيرة للشعوب ، وإنها نذرت نفسها ووهبت مالها وسلاحها ونفوذها الأدبى لتحرير الشعوب الضعيفة التى ترزح تحت مطارق استعمار لا وجود له اليوم إلا فى أوهام إخواننا الشيوعيين ... كيف يقولون ذلك ويذكرونه بمناسبة وبغير مناسبة كأننا من البلاهة والسذاجة حتى نصدق أن غزاة المجر وتشيكوسلوفاكيا قد اجتاحوا البلدين للقضاء على استعمار بغيض؟ ! ...

إن الروس وحدهم اليوم هم المستعمرون ...

وإذا ساءتهم مناقشاتنا فى قضية الاستعمار المزعوم ، وأكذوبة روسيا نصيرة الشعوب ، قالوا رجعيون يكتبون ويتحدثون ...

ولماذا نحن رجعيون ؟

نحن رجعيون لأننا نؤمن بالله وكتبه ورسله ...

نحن رجعيون لأننا نؤمن بالقيم الأخلاقية الرفيعة ...

نحن رجعيون لأننا نريد الحرية لكل إنسان ...

نحن رجعيون لأننا أنصار النظام الديمقراطى السليم ...

نحن رجعيون لأننا ضد المعتقلات والسجون وهتك الأعراض وتعذيب الأحرار المجاهدين ...

نحن رجعيون لأننا نحارب سرقة أموال الناس وممتلكاتهم بحجة التحول الاجتماعى وبغير ذلك من حجج يزعمها اللصوص والمرتشون ...

نحن رجعيون لأننا نرفض حكم الغاب الذى يأكل فيه القوى الضعيف ...

نحن رجعيون لأننا لا نقر أسلوب الروس فى معالجة أمور الخصوم بقتل أربعين مليوناً ليسيطر المذهب الشيوعى ويسود ...

نحن رجعيون لأننا لا نضلل الناس ولا نبلبل أفكار الناشئة ولا نزور التاريخ ...

سوف نمضى على ما فطرنا عليه ، نقول كلمة الحق مهما يغضب الغاضبون ...

سوف نقول للسلطان ، هنا حدث خطأ ، وهنا أصبت الهدف ، فان لم يرق له قولنا فقد تحملناه ورزقنا على الله ، والله ولى الصادقين ...

تغليق الانفتاح

إذا جاءك نبأ بأن تعويق الانفتاح مرده إلى ما عندنا من فساد ، فتلك أكذوبة تطلقها هيئة المنتفعين بالانغلاق .

وإذا كنا قد رأينا الفساد فى هيئة الأوقاف وغيرها من هيئات ، فإنه موجود فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا وهولندا واليابان ، وهى جميعاً من أعظم دول العالم ، وسوف تجد الفساد عندهم مارداً يتربع فى حجر أمراء ووزراء ورؤساء حكومات(١) ...

وإذا كان الفساد عندنا قزماً ، فهو حصيلة الفقر والإملاق ، وهو ليس طبعاً فينا ، بيد أنه سجية فى تلك البلاد التى ما كان يجب أن يعرف الفساد طريقه إليها ، وهى بلاد متحضرة يسودها الرخاء ، وبعضها فى تخمة من العز والمجد والثراء ...

ومع ذلك كله فهى بلاد تستمتع بكل أنواع الانفتاح ...

صحيح أن المستثمرين يلقون عندنا المتاعب فى السكنى ونقلة الطريق ووسائل الاتصال ووسطاء السوء وغير ذلك من معوقات ، ولكن تغليق الانفتاح لا يكمن فى هذه المتاعب التى يشكو منها المستثمرون الأجانب والعرب والمصريون على السواء ...

هل يمكن لهذه المتاعب أن تكون عائقاً فى سبيل الانفتاح

---

(١) فى قضية شركة لوكهيد خير دليل .

الاقتصادى الذى يدعو إليه رئيس الدولة ويتبناه فى صدق ، ويحرص على تحقيقه ويرجو من ورائه اجتياز ما خلفه لنا النظام البائد من بلاء؟

لقد ذكرتم لنا يا سيدى الرئيس فى حديث صحفى « أنه لا توجد معارضة لسياسة الانفتاح ، ولكن معظم موظفى الحكومة تعودوا على السلبية ... وأجهزة الدولة أصابها الشلل والجمود على مدى ١٨ سنة ... » :

ثم تقول فى هذا الحديث « أنظر عبر ١٨ عاماً كان هناك ستار حديدى حولنا مع وجود قوانين جعلت كل مواطن سلبياً تماماً »(١) .

وعدتم فى أكثر من موقع فى هذا الحديث فأكدتم أو كررتم معنى هاتين الفقرتين اللتين نقلناهما عن حديثكم ، ثم ذكر لكم المحرر أن بعض وزرائكم من مدرسة أل ١٨ سنة ومدرسة الستار الحديدى والسلبية والجمود والشلل ، وعقبت على ملاحظته بأنك تتولى بنفسك سياسة الانفتاح ، وتجاهد فى سبيل ذلك وتركب الريح بالهيلوكوبتر إلى مواقع العمل وتحركها وتدفعها إلى النشاط .

ومع ذلك كله فإن ما ذكرته ليس عائقاً هاماً فى سياسة الانفتاح ، إن العائق الأكبر لا يريد الرئيس أن يدخله فى حسابه ، ومنذ قليل

(١) من حديث الرئيس مع محرر انستيتيوشونال انفستور كبرى المجلات الاقتصادية الأمريكية — راجع آخر ساعة فى ٢٥ أغسطس ١٩٧٦ .

حدثنا عنه فى شجاعة وتحد وهو يخطب فى ذكرى قيام الثورة التى فجروها لتزيل من حياة الشعب كل العوائق والعقبات ...

إنه الصنم الذى يخافه المستثمرون عامة والعرب منهم خاصة ، الصنم الذى أقمناه كما تقول سيادتكم لنعبده ، ونطوف به ونترنم باسمه فى فيض من الشعارات السقيمة والأغانى التافهة والأناشيد التى لا تثمر ولا تفيد .

الاشتراكية النابعة من أنفسنا ! لست أدرى كيف ينبع من أنفسنا السمحة الكريمة المواتية هذا الصنم الذى حطم كل عرف وأساء إلى كل نشاط وأفسد المودة وقطع عروق المحبة بين الفئات ؟...

إن لفظ « الاشتراكية » لفظ سمج وسخيف وعاجز ولا وجود له اليوم فى أى نظام اقتصادى معروف .

هناك فقط الشيوعية وهو نظام تعافه الأنفس المؤمنة بكل جميل وجليل وعلى نقيضه يقوم مذهب آخر نسميه الرأسمالية ، وهو كالاشتراكية يكاد يفقد معناه بما حققته البلاد التى تعيش فى أعطافه من عدالة اجتماعية .

إن لفظ « الاشتراكية » ترجمة غير أمينة فى التعبير عن « العدالة الاجتماعية » التى تدعو إليها جميع المثل الرفيعة والأديان السماوية .

ونحن لسنا شيوعيين ، ولن نكون بإذن الله ، لأننا نطبق من القوانين ما يذيب الفوارق بين الطبقات ، ويحقق العدالة الاجتماعية بين هذه الطبقات .

وإذا كانت الدول العربية تمدنا بالعون ، قليلا أو كثيراً ، فهى معونة حكومات تثق فى حاكم مصر ، لأنه عندها صمام الأمان وليس فى غيره ضمان ، أما أفراد الشعب العربى ، فلفظ الاشتراكية مرتبط فى أذهانهم بصنوف من العذاب جربوها هم أنفسهم أو شاهدوها فى أصدقائهم من خيرة المصريين .

ففى ظل الاشتراكية أممت مصر أو وضعت تحت الحراسة شركات ومصانع وعمارات الأجانب، وصادرت أموالهم من بيوتهم ومن خزائنهم فى البنوك، ومن بين هؤلاء نال العرب نصيب الأسد، وحتى الملك فيصل لم ينج من التأميم والمصادرة، فانتزعت منه أرضه، وهى المساحة التى بنى عليها فندق شيراتون ، أخذوها منه قسراً دون مراعاة لمقامه ، ودون اعتبار للعلاقات الدولية التى تحمى حتى صغار الدبلوماسيين فى أى ظرف من الظروف .

تماماً كما يسطو اللصوص على قوم آمنين !!

يرتبط لفظ الاشتراكية فى أذهان العرب بالسجون والمعتقلات ، ألم يأمر الرئيس الراحل بالقبض على مجلس وزراء اليمن حين نزل من الطائرة وهو الذى دعاه إلى الحضور ليفض خلافاً قام إذ ذاك بين هذا المجلس وبين رئيس جمهوريتهم السلال ؟ ثم أودع جميع هؤلاء الوزراء المعتقل لعدة شهور ! ...

إن العرب لا يؤمنون بهذه الأيديولوجيات التى تتعارض فى كثير من أهدافها مع الإسلام ومع سائر الأديان .

إن الاشتراكية التى سميتها فى خطابك (الصنم) تفزع إخواننا العرب ، لأنهم حطموا الأصنام منذ أربعة عشر قرناً !

إنهم حائرون ...

تقول فى خطابك فى يوليو الماضى ساخطاً متبرماً ، إننا جعلنا من الاشتراكية صنماً وجلسنا نعبده حتى توقفت فى اقتصادنا شرايين الحياة ، وهو قول مطمئن لرأس المال ... ثم تبقى على الاتحاد الاشتراكى وهو قاعدة الصنم أو وعاؤه !

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تنتظم فى إطار هذا الصنم ثلاثة أجنحة هى التى ستحكم مصر وتسوس أمورها ونظمها وفى مقدمتها النظام الاقتصادى الذى تدعوهم إلى تأييده وتدعيمه بما يملكون من ملايين .

ثم تعين حارساً جديداً للصنم ، وهو المدعى الاشتراكى ، وفى الدولة أجهزة قضائية من وظيفتها حراسة أموال الدولة والناس .

ربما كانت هذه الوظيفة صالحة يوم كان الأمر لما تسمونه الشرعية الثورية ، أما اليوم وقد دخلنا فى نظام تسوده الشرعية الدستورية ، فإن هذه الوظيفة أصبحت غير ذات موضوع ، لأنها تجافى روح الدستور بالرغم من أن ذكرها جاء فى الدستور ، وتخالف سيادة القانون لأنها تضيف إلى حراسة البلغ الوقورين حارساً بسروال قصير ! ...

هذه الوظيفة الفريدة فى دنيا القانون تخيف العرب وغير العرب حين يفكرون فى استثمار أموالهم ورأس المال كما تعلمون جبان .

وقد نكص أكثر من مستثمر عن المضى فيما شرع من خطى الاستثمار بعد ذلك التصريح الخطير الذى أدلى به المدعى الاشتراكى (١) لجريدة الأهرام فى شهر سبتمبر الماضى (٢) يتوعد فيه المستغلين من أصحاب العمارات والشقق المفروشة بالوضع تحت الحراسة والسجن إلى أمد طويل أو قصير .

ومرة أخرى أؤكد بأن رأس المال وافداً أو مقيماً ليست فيه شجاعة ليحتمل العودة إلى الحراسة والسجون ...

ويقول بعض المستثمرين إن آفاق الاستثمار مغلقة فى وجوههم فى كثير من الآفاق ...

يطلبون أحياناً إذناً بمصنع للنسيج أو شركة لتصنيع الدواء ، فيقال لهم هذا وقف على القطاع العام ، وهو واحد من أولاد الصنم ، والصنم لا يؤثر أحد على هؤلاء الأولاد ؟!

ويقال لأدوات الانفتاح وهى بقية من نظام الراحل الكبير وهم

---

(١) المدعى الاشتراكى الحالى الأستاذ أنور طه حبيب زميل الصبا والشباب ، وكانت تربطنى بشقيقه الأكبر المرحوم الأديب الكاتب العالم وأحد شيوخ المترجمين فى مصر مصطفى حبيب روابط أقوى من وشائج القربى ، ورب أخ لم تلده أمك ...!

والمدعى الاشتراكى موضوع نقدى هنا له تاريخ وطنى معروف وعلى قدر علمى فقد لقى من طواغيت الاشتراكية كثيراً من المتاعب والمعاناة ...

(٢) جريدة الأهرام فى ١٩٧٦/٩/١٦ .

فى أكثر من موقع يفسدون أيامك المشرقات ، ويحاولون تعويق المسيرة إن لم يكن فى مقدورهم نسف ما صنعت من منجزات ...

يقال لهم ، لقد أثقلتم على مواطنيكم بايثار وليد الاشتراكية الكسيح الذى تسمونه القطاع العام ، والذى احتكر أهم الصناعات وسيطر على أكبر التجارات ؛ فارتفع بسوء تدبيره وسرفه وسفهه سعر النسيج إلى عشرة أضعاف سعره يوم كان أمره إلى القطاع الخاص ، ومثله زادت أسعار الدواء وندرت فى الأسواق وإن وجدت فكثير منها فاسد نتيجة الإهمال والتسيب والسرقات ، فضلا عن المستوى الردىء الذى يعرضه هذا القطاع فى كل مجالات التصنيع والإنتاج .

ولكنهم صم لا يسمعون ، وبكم لا ينطقون ، إذ ليس من هدف لهم إلا تغليق الانفتاح ؟..

إنها كارثة تواجه أى مستثمر ، سواء من الوافدين أو من المصريين أصحاب النشاط الخاص .

ويقول إخواننا العرب ...

عظيم أن يكون على رأس مصر زعيم ديمقراطى متفتح كالسادات ، بيد أن هذا الزعيم يحكم للأسف الشديد بجهاز منغلق ديكتاتورى تثير أدواته المتاعب فى وجه كثير من المشروعات ، مما يذكرنا بأسلوب النظام السابق الذى حارب رأس المال الخاص سواء كان للمستثمرين الأجانب أو للمصريين أصحاب البلاد .

ويقولون ...

صحيح أن وجود السادات على رأس مصر ضمان لرأس المال الوطنى والأجنبى ، وحافز على توظيف ملايينا فى خدمة الاقتصاد المصرى بما يعود على مصر وعلينا بالخير والبركات ، ولكن ماذا بعد السادات ؟! ..

إنها مغامرة بالرغم من وجود السادات ، ولسنا جميعاً من عشاق المغامرات .

من يحمى أموالنا إذا قام بعد السادات بكباشى آخر وصادر أموالنا وأمم مصانعنا ومتاجرنا ووضعنا تحت الحراسة بحجة التحول الاجتماعى وحتمية الحل الاشتراكى وعودة المد الثورى والقضاء على الإمبريالية والتصفوية والرجعية وسحق رأس المال الذى يستغل عرق العامل والفلاح إلى غير هذه الحجج المغلفة بشعارات مجهلة لا يفهمها حتى مبتدعوها من مخترعى هذه الشعارات ؟ ! ...

إن عصر السادات تميز بوجود حكومة مجتهدة فاضلة تحاول على قدر طاقتها أن تؤكد سلطة القانون ، وتحمى المال العام والخاص ، بيد أنها هى والنظام كله مرتبط أمرهما بوجود الرئيس السادات على رأس السلطة ، فاذا رأى أن يستريح ، ومن حقه يوماً أن يستريح فما نظن أن المؤسسات الدستورية فى إطارها الحالى قادرة على مواجهة ما قد ينبت من تحت الأرض ، وليس كل ما يخرج من تحت الأرض يحمل المن والسلوى ، فتحت الأرض أحياناً ثعابين وحيات ، واصطراع يمور ويفور بالزلازل والهزات !!

خلجات بغير عنوان

كانت أم نابليون لا تحب الحديث فى أمور السياسة ، وكانت تقول : مالى والسياسة والإمبراطور موجود ؟

وعاشت فرنسا ثمانية عشر عاماً كأم نابليون ، ترى الكياسة فى البعد عن السياسة ، وترى الأمان فى ترك الأمور يتولاها السلطان ..

وفى الربع القرن الأخير عاشت معنا فى مصر أم نابليون ثمانية عشر عاماً أخرى ، فكانت الأمور كلها مرجعها إلى جلالة الإمبراطور !

ثم توليت يا سيدى أمورنا ، وقلت لنا فى معرض شكرك لمواطنيك على تجديد البيعة لك فى شهر سبتمبر الماضى ، إنه لا خير فينا إن حبسنا كلمة النقد ، ولا خير فيكم إن لم تستمعوا إليها ...

وها نحن أولاء نقول كلمة النقد فى غير « تحجر » ورءوسنا تجرى إلى الأمام ، وتسبق جيلها بأعوام وأعوام ...!

* * *

طلبت إلينا فى خطبة مارس أن نشد الأحزمة على البطون حتى تجتاز البلاد محنة اقتصادها المتردى ، وبدا فى الصحف أن حكومتك تحاول أن تكون قدوة للشعب ، فخفضت من ميزانيتها الكثير ، وإن جاء جانب من هذا التخفيض على حساب بعض مشروعات الإنشاء والتعمير .

وتهيأنا يا سيدى الرئيس لنشد الأحزمة على البطون وإن كان بعضها خاوياً لا يحتمل حجراً أو رباطاً ... فاذا فى بعض تصرفات وزرائك ما يثير السخط والغضب ، ومع أنهم وزراء « شطار » فى مواقعهم ، ومجتهدون فى عملهم ، إلا أنهم لا يعيشون معنا ولا يتعايشون مع توجيهاتك ، وهم فى أبراج عالية لا يعرفون المعاناة التى يحياها مواطنوك إذا أمسوا أو أصبحوا .

لقد جمّل وزير الخارجية وزارته فأعاد دهانها من جديد ، فلما اكتمل رواؤها وتم بهاؤها دعا إلى العشاء نحو ألف من الدبلوماسيين ، ولم تكن هناك مناسبة قومية تقتضى دعوة العشاء إلا أن يكون ذلك احتفالا بدهان الأبهاء والحيطان !

ولا اعتراض لنا على دهان النوافذ وطلاء الحوائط ، فذلك جهد مشكور من الوزير ، لأن وزارة الخارجية وجهة البلاد ، وهى فى جميع دول العالم تبدو تحفة فى الأثاث والبناء ، ويستوى فى ذلك الترف الرأسماليون والشيوعيون على السواء .

وإنما اعتراضنا على الإسراف فى إقامة المآدب والحفلات وخاصة إذا أقيمت لسبب غير معلوم ، فسوف يكون ذلك مدعاة لضيق المواطنين الجائعين الذين نطالبهم بشد الأحزمة على البطون ! ...

ثم نشرت جريدة الأهرام خبراً طريفاً عن همة وزير الخارجية فى إبراز محاسن وزارته ، فزعمت أنه اتفق مع أحد الرسامين على

أن يعد لوحات بصور جميع وزراء الخارجية الذين تولوا الوزارة من أربعين سنة مقابل خمسمائة جنيه لصورة كل وزير ! وقالت الجريدة إن صور الوزراء سوف تزين ردهات الوزارة لتكون متعة للناظرين(١) ! ...

ولا أدرى كيف وقفت معلومات وزير الخارجية فى تاريخ الوزارة ووزرائها عند سنة ١٩٣٦ ؟ فوزارة الخارجية أقدم بكثير مما توهمه السيد الوزير ، إذ أنشئت منذ مائة عام فى عهد الخديو إسماعيل عندما تقررت المسئولية الوزارية فى ذلك الحين ، وهى موجودة — تجاوزاً — منذ عهد سلفه سعيد باشا وإن لم تكن مصر تملك فى ذلك الوقت أن تمنح المسئول عن الشئون الخارجية لقب الوزير .

وما يليق بالوزارة التى تصنع التاريخ أن تجهل تاريخها حين تريد أن تسجله فى صور لوزرائها الغر الميامين ؟ ! ...

وما يليق بها أيضاً أن تبذر أموال الكادحين فى رسم أسلاف الوزير ، وهو عمل يحتمل التأجيل إلى ما بعد انفراج الأزمة الاقتصادية فى سنة ١٩٨٠ وإلا كانت الوزارة مجافية لتوجيه الرئيس الذى دعا إلى شد الأحزمة على البطون ...

* * *

(١) جريدة الأهرام فى ١٩٧٦/٢/٢٥ .

ويقولون يا سيدى الرئيس إن فى سيارة كل وزير تليفوناً يستعمله إذا شاء وهو فى الطريق فيتصل بوزارته إن دعت الحاجة إلى ذلك ، فقد تكون هناك قضية ملحة ، لذلك زودت بالتليفون سيارة كل وزير .

ويقولون إن ذلك الحدث ، أى تليفون فى سيارة كل وزير ، ليس بدعة فهو وارد عند وزراء الدول المتحضرة ، ووارد عند رجال المال والأعمال من أصحاب الملايين ....

ويقول المواطنون ، إنها بدعة مقبولة هناك ، لأنهم لا يشكون عجزاً فى ميزانية الدولة ، والرخاء عام وشامل ، وليس بين القوم واحد فى مسغبة ، والبطون من فرط الخير بَشِمَتْ ولم يعد فيها مكان لزاد جديد ....

ثم يقولون ....

وإذا فهمنا واقتنعنا بأن كبير الوزراء وزميليه وزيرى الدفاع والداخلية تفرض مسئولياتهم أن تكون فى سياراتهم تليفونات لأن السياسة العامة فيها كثير من المفاجآت يجب أن يكون رئيس مجلس الوزراء على علم بها فى بيته أو مكتبه أو فى الطريق ، وأن أمن البلاد سواء على الحدود أو فى الداخل يقتضى سرعة البت من الوزيرين الآخرين ، فما نظن أن لدى وزير الأوقاف مثلا من المشاكل العاجلة ما يحتم وجود التليفون فى سيارته ، وأكبر الظن أن وزير الأوقاف إن غاب عن وزارته شهراً ، أو سكتت تليفوناتها دهراً ، فان أمراً

من أمورها لن يعوج أو يستقيم ، لذلك يعتبر المواطنون تزويد سيارة مثل هذا الوزير بتليفون تبذيراً فى مال العمال والفلاحين أو استكمالا لمظهر فارغ فى عهد يطالبنا الرئيس بأن نشد فيه الأحزمة على البطون !...

* * *

وفى الوقت الذى تطلب من المسئولين الاقتصاد فى النفقات ، وتوظيف العملات الحرة فيما يعود بالنفع على الوطن ، ويفرج كروب الناس ويخفف متاعبهم ... فى هذا الوقت العصيب ينقل لنا التليفزيون الدورة الأولمبية فى كندا عبر القمر الصناعى ، وتكلف الدقيقة فيما يقولون آلاف الدولارات...

ما ضرنا لو كانت الطائرات قد نقلت أفلام الدورة يوماً بعد يوم دون أن ترهقنا بعشرات الألوف من الدولارات ؟...

هذه جزئية فى سياسة الإنفاق ، ولكنها عند المواطنين تسيب وإسراف ، ودليل على التبذير فى وقت يقتضى منا القصد والتدبير .

وهذه الجزئية لها فى كل يوم نظير هنا أو هناك ...

* * *

وهل عندهم فى دمشق أو طرابلس فندق كفندق هليوبوليس صنعوا فيه ما صنعنا فى فندقنا العتيد ، منذ أقمنا فيه تلك الوحدة المزعومة ، ثم قلنا هنا مقر الاتحاد وهنا توحدت البلاد ، ثم كيفنا الحجرات ، وفرشنا البسط والسجاجيد الصينيات والإيرانيات ؟!

وجئنا بدمى صنعنا منها حكومة ، وقلنا هؤلاء هم الوزراء والنواب ، وأجرينا عليهم الرزق بسخاء ، رواتب ضخمة بالعملات الصعبة ، وخصصنا لهم السيارات الفارهة ، والمكاتب الفاخرة ، ولم نسمع لهم جهداً إلا جهداً مشكوراً لواحد منهم فى ميادين كرة القدم !

ولم نر لهم أثراً إلا فى انهيار وحدة الجهل والقحة والندم ! ! ...

ترى سيدى الرئيس ، كيف تقوم وحدة بين أنظمة تختلف من الجذور والأعماق ؟

حكم المفتون السفيه الجاهل فى طرابلس ...

وحكم القـانون والحرية فى القـاهرة ! ...

إن الوحدة فى أواخر القرن العشرين تفكير رجعى وسقيم ولا يتفق مع تطور الحياة .

إن الوحدة فكرة من مخلفات القرون السابقة ، وقد فشلت فى الأحلاف المقدسة ، وفى حروب نابليون .

إن الدين والتقاليد واللغة ليست مبررات لقيـام الأحلاف والوحدات ، وإلا كانت هناك وحدة بين بلجيكا وفرنسا ، وبين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ومقاطعات فى سويسرا ، وبين معظم دول أمريكا اللاتينية ، وبين الولايات المتحدة وكندا ، والأمثلة لا تعد أو تحصى ...

الدنيا مصالح ، وإن وجدت بين دولة وأخرى كانت عاملا أقوى من الوحدات والأحلاف ...

هل من المعقول أن تتم وحدة بيننا وبين البدوى السفيه فى الوقت الذى قصمنا بجهلنا وغبائنا وحدة كانت قائمة عبر آلاف السنين بيننا وبين السودانيين ؟

وعلى أى حال فإن الوحدة قائمة فى وضع ما بيننا وبين جميع بلاد الوطن العربى .

إنها قائمة بمعلمينا ومهندسينا وأطبائنا وخبرائنا وعمالنا الذين يعملون ويشيدون ويطبون وينصحون فى تلك البلاد .

إنها قائمة فى كل أرجاء العالم العربى بمالنا فى هذا العالم من آثار أدبية ومادية وبما لنا من جيش يحمى ذمارهم ، ووزن دولى يعلى من قدرهم .

إنها قائمة ...

إننا هناك ...

إنها حكم القدر مهما تنطلق الألسنة بالقحة وسوء الأدب فى صحف وإذاعات البدوى الجاهل الخالى من الفطنة والذكاء ...

إننا نرفض وحدة مع معتوه يبدد أموال مواطنيه فى التدمير والتحريق والمؤامرات وسرقة الطائرات ، ويفجر القنابل فى أبرياءنا وييتم أطفالنا ... !

كيف تبسط يدك لمن تلطخت أياديهم بدماء المصريين .

صدقنى يا سيدى الرئيس حين أزعم أننا لا نزال نعيش فى جانب من حياتنا فى الوهم والشعارات التى حطمنا أصنامها منذ ست سنوات ...

اعقلها وتوكل ...

قل للتاريخ إنك لا تكذب على نفسك وعلى الناس ، ولأنك صادق مع نفسك ومع الناس ، فسوف تلغى هذه الأكذوبة التى قامت على غير أساس ، وتسترد نوابك ووزراءك من وحدة الوهم ، وتوفر لخزانة الدولة ما يصرف عليهم من حر العملات ، وتفتح الفندق التليد لرواده بعد أن طال قعودهم فى الطريق العام ... !

* * *

وفى الاحتفال بذكرى الراحل عبد الناصر ، تحدثت يا سيدى عن إضراب بعض عمال النقل العام خلال شهر رمضان ، وهى جريمة ليس لها من دافع إلا ذعر الماركسيين وحلفائهم من النتيجة الباهرة التى حصلت عليها فى استفتاء الرئاسة ، وذلك حدث يهز كيانهم ، ويحبس آمالهم فى بيات طويل مداه ست سنوات ! ...

ولما كان الشيوعيون لا يؤمنون بحوار اللسان ، أو يقارعون الرأى بالحجة والبرهان ، فإن سياستهم التحطيم ونشر الفوضى ، وبث الكراهية والأحقاد ، وقطع عروق المحبة بين الإنسان وأخيه الإنسان ... !

لقد أرادوا استغلال ضيق الناس بكثير من متاعب الحياة التى ورثتها عن نظام كانوا سدنته وألسنته ، وليس لك فيها نصيب .

لا حرية مع الفقر ...

شعار يرفعونه معارضين ، حتى إذا تولوا السلطة ، أصبح الفقر قاعدة الحياة ، وانتفت الحرية ، وحلت مكانها المشانق والمخانق والمنافى والسجون ..

وما أظن أحداً فى مصر يمكن أن يتجاوب فى حلف مع ذلك الشيطان إلا من يسمون أنفسهم ناصريين !...

علام يلتقون ؟

الحقد طبيعة الشيوعيين والناصريين ...

السجون والمعتقلات هى العملة السائدة فى النظامين ...

الإشاعات والأكاذيب والشعارات الفارغة التى لا مضمون لها ، هى طرائق الإعلام عند الحليفين ...

ليس فى مصر يمين متحجر إلا أن يكون الناصريون قد لبسوا قميص هذا اليمين ...

إنهم وحدهم يسيرون إلى الأمام ورءوسهم إلى الخلف تبكى السجون الدوارس ، وتتحسر على ذلك السلطان الباغى الذى حكموا به مصر معظم الجيل !...

إن كليهما ، الشيوعيين والناصريين ، لا يريدون لنظامكم أن

يمضى قدماً نحو التطور الذى وعدت به إن نجحت التجربة الديمقراطية التى بدأت منذ حين .

إن الوطنيين الأحرار لا يمكن أن يخاصموك وأنت صاحب رسالة الانفتاح وصاحب معركة التحرير ...

نحن الوطنيين الأحرار ، السواد الأعظم الذى أفاد من منجزاتك وهى المنجزات التى عصفت بأحلامهم وكانت مبرراً لجلفهم المتين .

ألا تعلم أن أقوى الأحلاف ما قامت بين الشياطين ؟

نعم فى مصر الأحرار الوطنيون ، وقد يختلف معك هؤلاء الأحرار الوطنيون فى طرائق النظر لبعض الأمور ، ولكنهم فئة غير متحجرة ، فئة حرة لا ترى الجريمة وسيلة للحوار ، وأقسى ما تحمل من سهام ، قلم يكتب ، ولسان يفصح ويبين .

يقولون لا حرية مع الفقر ...

ونحن نقول لا فقر مع الحرية ...

لذلك نرجو مزيداً من الحرية لنقضى على الفقر الذى صنعوه لنا ليركبوا موجته ، ويعطلوا مسيرة الحرية ، ويعودوا بنا القهقرى إلى عهد العصا وما جاء بعدها من أدوات التنكيل والتعذيب ...

* * *

إنك يا سيدى الرئيس تقطن بيتاً يقع على ضفة النيل ..

وقد استمعت إلى حديث السيدة قرينتكم فى التليفزيون وفهمت أن رياضتك المفضلة السير فى الحديقة على النيل ...

ولا شك أنكم سرحتم مراراً فى جلال هذا النهر العظيم ، ولا شك أنكم تقدسونه كما يقدسه المصريون والسودانيون وكل قطر يتهادى على شاطئه فى انسياب وحنان، يسقى الظامىء ويروى الأرض، ويحمل على سطحه البواخر والمراكب تنقل الخير إلى كل مكان ...

ولما كانت مصر هبة هذا النهر الخالد ، فقد حياه المصريون بلافتة صغيرة كتبوا عليها ... شارع النيل .

وفى غفلة من المسئولين ، وفى غفوة من ضمير ، لص واحد من أذناب الطغيان فمحا اسم الحى الذى وهب الحياة للأحياء ، ووضع مكانه اسم عبد الناصر !

ترى هل يضير النيل أن يطمس اسمه وهو قرين الأزل ورفيق الليل والنهار ؟

قل لهم سيدى ، هذا عيب وإنها فعلة لا تليق ...

لقد محوا اسم « سليمان باشا الفرنساوى » من ميدانه المعروف وهو من الأسماء اللوامع فى عهد محمد على الكبير ، وهو الفارس الذى أنشأ لمصر أقوى قوة ضاربة فى العصر الحديث ، وقاد جيوشنا إلى مشارف القسطنطينية وحارب جيوش العالم مجتمعة وأعلى من إسم مصر والمصريين ...

قل لهم سيدى ، ليس بمثل هذا يحفظ الجميل ، وليس بمثل هذا يمكن للحقد أن يزور التاريخ ... !

وفى الإسكندرية أصبح الناس يوماً فإذا شارع شريف باشا قد تحول أيضاً إلى شارع صلاح سالم !...

وإنه لشىء عجب أن يكون صلاح سالم وحده من بين أعضاء مجلس الثورة ، الأحياء منهم والأموات ، هو الذى يخصونه بأطول طريق فى القاهرة يربط جنوبها بشمالها ، وصاحب أطول طريق فى الثغر العتيد ، ولا يقفون فى تكريمه عند هذا الحد من التكريم ، فيسطون على اسم شريف باشا وله فى التاريخ تاريخ ، ليضعوا مكانه اسم صلاح سالم صاحب أكبر مأساة عرفها التاريخ !

والله إنها لمفارقة تهز الوجدان وتثير سخط كل من قرأ التاريخ .

إن شريف باشا الذى يجهل سيرته الجاهل الذى أراد أن يحذف اسمه من سجل الخالدين ، كان أول رئيس للوزراء نادى بالديمقراطية والحرية فى عهدى إسماعيل وتوفيق ، وطالب بأن تكون الكلمة للقاعدة العريضة من أبناء الشعب ، لا للأمراء والوزراء وأصحاب الرتب والطين .

ثم عاد رئيساً للوزراء فى سنة ١٨٨٤ ، وقد طلب إليه المحتلون الإنجليز أن يسحب الجيش المصرى من السودان ، فأبى عليهم ذلك ، لأنه اعتبر سحب فرق الجيش من السودان كسحب فرق مثلها من

الإسكندرية أو أسوان ، فالسودان كان عند الرجل جزءاً متمماً لمصر وامتداداً لها فى الجنوب ، وسحب الجيش منه كسحب الروح من الجسد ، ولم يكن الرجل مستعداً أن يكون هذا الجلاد الحقير !...

فماذا فعل السيد صلاح سالم أحد الفراعنة الذين حكموا مصر بالعصا والكرباج ؟

إن له تاريخاً فى قضية السودان يجب أن يعرفه الجيل الناشىء التائه بين التزوير والتضليل .

ذهب إلى هناك وبذر ملايين الجنيهات واستعرض مفاتن جسده عارياً كما ولدته أمه ؛ ورقص هكذا رقصة إفريقية ، وحل المشكلة السودانية فى لحظات ، إذ وقع مع الإنجليز وثيقة بفصل مصر عن السودان ! !

لصلاح سالم هذا شارع وطريقان ، فى الوقت الذى تضن مصر على زعيمها مصطفى النحاس أن يكون له فى القاهرة أو سمنود حارة أو زقاق !

مصطفى النحاس الذى أعلن وحدة وادى النيل وتحدى الإنجليز ووثق ذلك بقانون ، وأيد بالمال والسلاح حملة الفدائيين على المحتل فى مدن القناة سنة ١٩٥٢ حتى لجأوا إلى حرق القاهرة ليتخلصوا من أعظم مجاهد عرفته مصر بعد سعد زغلول ....

قل لهم سيدى الرئيس ... اخجلوا فقد ألفت لجنة لتصويب التاريخ ... !

* * *

بودي يا سيدي الرئيس أن نكون أكثر حزماً مع الروس ...

إن المتاعب التى تلقاها بين الحين والآخر ، يرتب لها هؤلاء الروس . وتقوم سفارات تجرى فى فلكهم ، بمعاونة عملائهم فى القاهرة ، وبتأييد ممن يسمون أنفسهم ناصريين ، يقوم كل هؤلاء بحملة التشكيك فى كل نواياك ، وقد امتطوا موجة الأزمة الاقتصادية ليهزوا مجتمعنا من الأعماق .

هذه حقيقة تعرفها الحكومة ويعرفها رجال الأمن ، ولا يعلنونها للمواطنين خشية أن يزيد الطين فى مجرى العلاقات بيننا وبين هذا الدب طويل الحوافر والأنياب ! ...

إن أقصى أمانيهم أن تزداد الأزمة الاقتصادية حدة ، فيزداد الناس ضيقاً وفقراً ، وفى ظنهم أن ذلك مدخل لانهيار النظام ، ومن ثم يقوم نظام شيوعى فى البلاد ، وإذا تحقق هذا الحلم تمركس الوطن العربى كله ورفرف العلم الروسى من سيبيريا إلى المحيط ! ...

أعلم أنه عشم إبليس فى الجنة .

الدنيا تعلم يا سيدى الرئيس أن الأزمة الاقتصادية من صنعهم ، وأنهم يريدونها خانقة ، وكل يوم يضغطون لتزيدوها حدة ، وفى

يدهم « كمبيالات » إما أن نسددها أو يعلنوا « بروتستو » ويشهروا على الملأ إفلاسنا !

والبديل أن نركع ونسلم قيادنا إليهم صاغرين ...

وديونهم تلك حصيلة سلاح باعوه لنا ومنعوا عنا قطع الغيار ، فإذا طلبناها من الهند أمزوها ألا تزودنا بما نريد ...

وإذن فهى ديون لحديد وخردة ... !

اعرضه سيدى عندنا فى « وكالة البلح » فان اشتروه حول لهم حصيلة البيع ، وهى كل حقهم فى ذمتنا ، ولا أقول اسقط هذه الديون كما أسقطوا هم دين السلاح الذى زودتهم به أمريكا فى أيامهم العصيبة إبان الحرب العالمية الثانية ...

إننا أشراف لا نأكل حقوق الناس ...

وإذا لم تكن لهذه « الخردة » سوق فى « وكالة البلح » ورأيت بنخوة الفلاح وابن القرية أن تسددها بالرغم مما أنت فيه من ضيق ، فاضرب لهم موعداً بعد عشر سنوات تسدد لهم حينذاك ما لهم من ديون بلا فوائد ، لأن « الخردة » (هنا) لا فوائد فيها حتى تكون لها فوائد ! ...

فإن قبلوا فمرحباً ، وإن رفضوا فتمثل بقولة سلفك — ولكل مقام مقال — قل لهم ما أكثر بحارنا ، فاشربوا من هذا البحر أو ذاك ...

لن تعتب عليك دولة من الدول ... فأنت لا تأكل مال يتيم أو أيم ... أنت تؤجل ديناً لميسرة ..

هذا الحل ، يحل نصف المشكلة ، والنصف الباقى تحله إمكانيات وطنك ويحله مواطنوك بشد الأحزمة على البطون ، ويغنينا الله سبحانه عن السؤال ، ويغنينا عن صندوق الدين الذى يريده وزير المالية العربى شرطاً لغوث طلبناه حتى نتفرغ لمواجهة إسرائيل ونحمى بمواجهتها معالى الوزير من عار الهزيمة ، ونحفظ عليه خزائنه المالية ، ونيسر له مزيداً من الترف والعز والأبهة ...

كم أساء إلينا الروس ؟ ...

* * *

سيدى ...

لقد توليت شئون البلد بعد رحيل عبد الناصر ، وعلى رأس كل مؤسسة وشركة ، وكل وزارة وإدارة ، واحد من الجهاز السرى ، وهم فيما نشرته الصحف وذكر فى ثورة التصحيح نحو خمسين ألفاً ، دربوا على الفتنة والتلصص ، وتشربوا سياسة اقتصادية لا تتفق أبداً مع سياسة الانفتاح التى ترعاها وتجاهد فى سبيل نجاحها ، ومارسوا الوظيفة طغاة مدللين لا يراجعون فى أمر ، ولا ينصتون إلا لأغراضهم وأهوائهم .

وفى ظل سيادة القانون انحسرت سرقاتهم وأحكمت الرقابة على تصرفاتهم ، وكشفت الصحف عن كثير من جرائم بعضهم ، ولم تعد لأعضاء هذا الجهاز الذين لا يزالون فى مواقعهم القدرة على ممارسة ما كانوا يمارسونه فاستعاضوا عنه بإفساد كل غرض تسعى إليه ، يبثون البلبلة ويشيعون الأكاذيب ، ويحطمون كل جهد يبذل لانفراج أزمة البلاد .

إنهم أعداء الحرية ، إنهم النمامون ، إنهم الجواسيس ، إنهم أدوات الطغيان والرجعية ، إنهم معاول هدم لكل منجزاتك ...

إنهم يرجون يوماً تعصف بالنظام أزمة فى الداخل أو أزمة من الخارج ، النظام الذى اطمأن فيه المواطنون إلى يومهم وغدهم ، وعلى مالهم وعرضهم .

لا أقول اسجنهم أو اعتقلهم فذلك أسلوب عهدهم البغيض وقد مضى إلى غير رجعة ، بل أقول سرحهم فى إحسان ، وتخير مكانهم المؤمنين برسالتك ، العاملين على رفاهية شعبك ، واقطع ما بين ماض مظلم ومستقبل مشرق .

سيدى ...

لقد انتظرنا ذلك الإجراء بعد ثورة التصحيح .. وفاتت الفرصة

وانتظرنا ذلك بعد نصر أكتوبر .... وضاعت الفرصة ...

وقد عدت إلى موقعك مظفراً منذ أسابيع ، فاهتبلها سيدى ولا تضيعها .... !

سيدى ...

إن النواقيس حين تدق ، فهى دعوة إلى صلاة ، أو إنذار بخطر ...

سيدى ....

هذا الكتاب ... دقة ناقوس ...

فهرست

رقم الإيداع ٥٣١٥ / ١٩٧٦
الترقيم الدولى ٨٠٠٩‏٧٢٤ ـ ٩٧٧

مطابع سجل العرب